

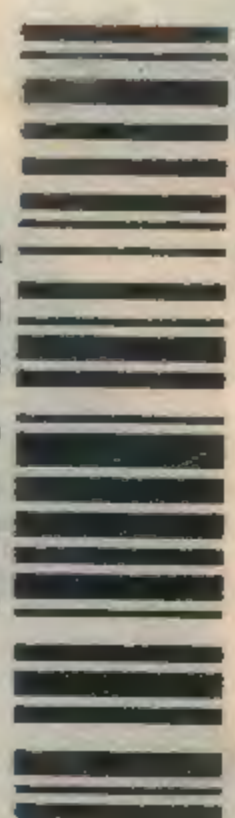
كتب ثقافية



النضال الشعبي

ضد الحملة الفرنسية

بقلم مقدم / محمد فرج



0204457

Bibliotheca Alexandrina

كتب ثقافية

النضال الشعبي

ضد الحملة الفرنسية

بقلم
مقدم / محمد فرج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بقلم : محمد عطا

ان فترة الحملة الفرنسية على مصر تعد من الفترات التي ظهر فيها معدن المصريين الحقيقي واصالتهم في الحرية ، وفي تمسكهم باستقلالهم ، والحفاظ على تقاليدهم وتراثهم ، هي فترة مجيدة في كفاح الشعب المصري وصموده واستبساله ، ومن دواعي الأسف أن التواريخ التي قرأناه لم يكشف عن هذا الكفاح وعن استمراره ، وعن دوافعه ، وعن شموله وعمقه ، ولم يكن ذلك الا لأن التاريخ الذي قرأناه كان تاريخا استعماريا أو مستقي من مصادر استعمارية ولم يكن لنا من متنفس في هذه الفترة الا تاريخ الجبرتي . هذا المؤرخ العظيم الذي عرف التواريخ على أنه تاريخ كفاح شعوب لا تاريخ أمراء وسلاطين وملوك فقد أرخ لكفاح الشعب في هذه الفترة كما ينبغي أن يؤرخ . ولعله المرجع الأصيل الوحيد لنضال شعبنا حين الحملة الفرنسية .

وقد يقول قائل اذا كان الامر كذلك فلم يكتب الكاتيون المحدثون عن نضال الشعب في هذه الفترة ولم لا نكتفى بما كتبه الجبرتي ؟

والرد على هذا التساؤل يسير اذ أن الجبرتي لم يتناول هذه الفترة تناولا مستقلا في تاريخه ، على أنه في تناوله لها قد كان هواه بعض الشيء مع العثمانيين ، هذا الى أن لغته في الاعم الأغلب لغة سقيمة محشوة بكثير من الالفاظ التركية وخاصة في الناحية الحربية .

على أن المؤرخ المحدث لهذه الفترة دقيق في تبويبه وتصنيفه ، لا يكاد يعتمد على مصدر واحد (المصدر المصري أو التركي أو العربي) بل عليه أن يستعرض ما كتبه الأجانب عن هذه الفترة ، وهذا العرض لوجهات النظر المختلفة يؤدي به الى سلامة التحليل والتعليل واصدار الأحكام .

وهذا ما فعله المقدم محمد فرج في هذا المؤلف الذي اعتمد فيه على مصادر مختلفة شرقية وغربية ، وحلل الموقف العسكري للحملة تحليلا عميقا وقد مكنته دراسته العسكرية من هذا التحليل .

ولا شك أننا في حاضرتنا نحتاج الى اصدار مثل هذه المؤلفات التي تعرض أمجاد شعبنا ، وتصحيح لنا التواريخ القومية ، وتهيئ لنا شئتنا السبيل القويم للاطلاع على هذه الامجاد والتزود من هذا النضال الرائع حتى يشبوا على كفاح كل معتد غاصب ، وحتى يؤمنوا بأن أجدادهم قد ضحوا تضحيات غالية ، فلقد أحرقت دورهم ، وصودرت أملاكهم .

واسيلت دماؤهم على أرض مصر الطاهرة ، وعلى الرغم من كل أولئك فقد استهانوا بهذه التضحيات ومضوا في كفاحهم الى نهاية الشوط .

لقد كان الفرنسيون في مصر يعيشون فوق بركان ثائر ، لم يهدأ يوما ولم يخب لحظة ، وهذا هو الذي عجل بطردهم وعودتهم من حيث أتوا يجرون أذيال العار والهزيمة على الرغم من أنهم كانوا في ذلك الوقت في أوج مجدهم الحربي ، ويقودهم قائدهم الكبير نابليون بونابرت .

ان المصريين لقنوا الفرنسيين درسا لن ينسوه ، هذا الدرس هو أن الشعوب الحية لا تخضع ولا تذلل ولا تنام على الضيم ، وقد لقنوهم هذا الدرس مع ما كانوا فيه من عنت ، وما عانوه من اضطهاد ، اضطهاد الاتراك و صلف المالك ، وجبروت الاقطاعيين .

ان هذه الحملة استنزفت الكثير من دمائهم وأقواتهم وأرواحهم ولكنهم كانوا كراما في البذل لأنهم وضعوا نصب أعينهم تاريخا يسطر ، وأجيالا قابلة ستحكم على مدى كفاحهم ونضالهم ، ولأن الحرية تجرى في عروقهم مع دمائهم .

وهذه الحملة كما سيري القاري قد فتقت آذانهم حتى أنشئوا المصانع الحربية التي زودتهم بالقنابل والمدافع والبنادق والأسلحة المختلفة، أنشئوها من العدم أو ما يشبه العدم فأثبتوا جدارتهم واستحقاقهم الحياة والخلود .

ولا شك أن من يقرأ هذا السفر سيخرج منه وهو فخور بهؤلاء الأبطال أبناء بولاق والحسينية وباب الشعرية ، فخور بأبناء دمنهور والزقازيق والاسكندرية وكل بلد في الوجه البحري ، وكذلك سيكون فخورا بأبناء الصعيد الذين استعصوا على أن تسيطر عليهم القوة الغاشمة، القوة الفرنسية المحتلة فظلوا أحرارا لم تنلهم يد الطغيان ، ولم تحتل أرضهم القوات الأجنبية الفرنسية .

وحسب هذا السفر أن يوقظ فينا هذا الاحساس ، وأن يشعرنا بالفخر نحو أجدادنا الأبطال .

محمد عطا

مقدمة المؤلف

قفزت الى ذهني فكرة اعداد هذا الكتاب حين كنت أستمع الى الرئيس جمال عبد الناصر وهو يقدم لأعضاء المؤتمر الوطني للقوى الشعبية مشروع الميثاق الوطني ... ولعل الفكرة قد احتلت مكانها في ذهني حينما تناول الرئيس جمال عبد الناصر بالحديث الجهاد البطولي للشعب المصري خلال القرنين الماضيين .

ولقد سرحت بخاطري خلال التاريخ فوجدت أن الشعب المصري يحتل مكانا مرموقا بين شعوب العالم التي قامت تكافح وتناضل من أجل سيادتها وحريتها واستقلالها ، وأدركت من الحقائق التاريخية أن الشعب المصري كان أكثر شعوب العالم تعرضا لمطامع الاستعمار والمستعمرين وأكثر هذه الشعوب مقاومة لها .

لقد جاء الى مصر مستعمرون من كل البلاد ، وطمعت فيها دول كثيرة ... جاءها الاتراك ... ثم الفرنسيون ... ثم الانجليز ... والشعب المصري خلال القرنين الماضيين يواجه هؤلاء وهؤلاء ... لم تقل عزيمته ... لم تضعف روحه ... لم تلن قناته ... لم تتهدم معنوياته ... لم تتزعزع ثقته في نفسه ... وانما ظل صامدا قويا عملاقا ... واجه هؤلاء جميعا بعنف ، وقضى على مطامعهم في قوة ، ورفع راية بلاده عالية موفورة الكرامة مهيبة الجانب .

والشعب المصري في مراحل كفاحه المختلفة ، لقي الكثير من صنوف التعذيب والارهاب ، وانتكيل والتخريب ، وكان الطريق أمامه طويلا شاقا وعرا ، كثير الاشواك التي تدمي الأقدام ... ومع هذا ظل سائرا متقدما ، بذات العزيمة الجبارة ، والرغبة القوية ، والارادة الصادقة ... وكان في جميع خطواته يبذل العرق والدم ، ويستمد من هزيمته قوة ، ويستخلص من الدم العرق الذي يتم به كفاحه ونضاله لم تزعجه كثرة الضحايا ، فقد كانت من وجهة نظره ثمنا بخسا يقدمه عن طيب خاطر ، من أجل حريته وسيادته واستقلاله .

جاءت الحملة الفرنسية الى مصر ومعها آمال كبيرة وأحلام عريضة وطن قادتها أن الشعب المصري قليل الادراك والفهم وأن طريق احتلال مصر مفروش بالورود ، ولكن الشعب المصري البطل وقف أمامهم وقفة بطولية وقاوم جحافلهم مقاومة تاريخية ، زلزل الارض تحت أقدامهم وهزأ بأعدادهم ومعداتهم ، فشلت الحملة الفرنسية ودفنت آمالها مع أمواج البحر المتوسط تماما كما دفن أسطولها في أبي قير .

وخرج الفرنسيون مهزومين مدحورين ، ثم تولى الشعب قيادة نفسه .
وأعلن زعماءه اختيار محمد علي واليا على البلاد ، . . . وكان محمد علي أول
وال يعين بناء على رغبة شعبية . . . وانحرف محمد علي عن الطريق الوطنى ،
وبدأ يرسم لنفسه سياسة توسعية يقصد انشاء امبراطورية تدين بالولاء
له . . . واصطدمت آمال محمد علي مع آمال الشعب ، وبدأ الشعب يخوض
غمار معركة جديدة ضده ، ثم ضد أبنائه وأحفاده الذين تولوا حكم البلاد
طبقا للنظام الوراثى الذى قرره الدول فى ذلك الوقت ، وانحرف أبناء
محمد علي جميعا ، وابتعدوا عن الشعب ، وبحثوا عن وسائل ترقية حياتهم
وارضاء نزواتهم ، واهتموا بالمظهر والأبهة والعظمة ، وأهملوا شئون
الرعية ، فانتشر الجهل والفقر والمرض .

وابتدأ المارد الجبار يتحرك بعد أن أدرك النهاية المؤلمة التى يقوده
اليهاحكام أسرة محمد علي ، وأحس هؤلاء الحكام بقوة المارد ، فبحثوا عن
وسيلة توطد حكمهم وتثبت وجودهم وتؤكد سيادتهم ، ولم يجدوا أمامهم
سوى الانجليز . الذين كانوا منذ عهد نابليون يتطلعون الى مصر وينتظرون
اللحظة التى يسيطرون فيها عليها ، ويجعلونها تحت حكمهم ، وفى دائرة
نفوذهم ، وجاءتهم الفرصة حين ثارت المقاومة الشعبية ضد توفيق بقيادة
أحمد عرابى ، واستغلوا هذه الفرصة الى أبعد حدود الاستغلال ، وجاءت
أساطيلهم تهدد الشعب ، وتضرب مدنه وتعدى على أراضيه ، وتنزل
قواتها الى بره ، وتحتل البلاد كلها بحجة الدفاع عن مصالح الحديو .
الذى هدأت نفسه وارتاح خاطره وقبل أن يعيش تحت حماية أجنبية وأن
يستمد وجوده وقدرته من جيش الاحتلال البريطانى . . .

ولكن الشعب المصرى البطل صاحب التاريخ المجيد . الذى زلزل
الارض تحت أقدام الفرنسيين ، والذى طرد فريزر حين جاء بحملته يبغي
احتلال بلاده ، صمم على أن ينال استقلاله وأن يعيش حرا وأن يظل دائما
صاحب السيادة فوق أرضه ، وبدأ جهاده الوطنى ضد الانجليز . وضد
عمالهم الذين ارتكز عليهم الاستعمار فى داخل البلاد .

وكانت مراحل طويلة من الكفاح الشعبى الحالد ، وكانت معارك
كثيرة متواصلة . . . واستطاع المارد العربى ببطولة أبنائه واصرارهم
وعزمهم وحماسهم واخلاصهم ووطنيتهم أن يهزم الاستعمار ، وأن يقضى
على أعوانه . وأن يخرج من معاركه كلها عملاقا قويا جبارا . واقفا على قدميه .
يحكم نفسه بنفسه . ويدير شئون نفسه على حسب رغبته وإرادته .

ولقد رأيت أن أؤرخ هذا الكفاح المجيد للشعب المصرى العظيم وأن
أسهم فى إبراز نواحي الوطنية والبطولة فى مراحل كفاحه ، فعزمت على
إخراج هذا الكتاب الذى يتناول قصة الكفاح خلال مائة وخمسين عاما
وعلى وجه التحديد منذ أن بدأ نابليون تنفيذ فكرته الاستعمارية فى احتلال
مصر . حتى قامت الثورة المصرية المباركة فى يوليو ١٩٥٢ ، وخلصت
مصر من الاستعمار البريطانى ، وأعادت الى البلاد حريتها كاملة واستقلالها
نما غير منقوص .

ولما كان حديث الكفاح الشعبى فى مصر يحتاج الى مؤلفات كثيرة
فلقد رأيت أن أقسم الكتاب أجزاء ، يتناول كل جزء منها حقبة من تاريخ
الكفاح الشعبى حتى أستطيع بذلك أن أعطى الموضوع حقه وأن يخرج
بالصورة التى تتفق مع مجد الكفاح الشعبى فى مصر .

وما هو ذا الجزء الاول من الكتاب ، يؤرخ الكفاح الشعبى المصرى
ضد الحملة الفرنسية ، وأرجو أن تتابع الأجزاء ، وأن يجدها القارىء
مكتملة بين يديه فى وقت قريب .

وتمنية ما أرجوه هو أن يكون الله لى خير رفيق وأن يكتب لنا فيما
نحن مقبلون عليه السداد والتوفيق

محمد فرج

البَابُ الأولُ مِصْرُ والحَمَلَةُ الفَرَنْسِيَّةُ

- ١ - مِصْرُ قَبْلَ الحَمَلَةِ الفَرَنْسِيَّةِ
- ٢ - الِاتِّجَاهُ إِلَى احتِلَالِ مِصْرٍ
- ٣ - الحَمَلَةُ الفَرَنْسِيَّةُ واحتِلَالُ مِصْرٍ

مصر قبل الحملة الفرنسية

بانتهاى موقعة الريدانية ، التى تمثلت فى طرفين ، أحدهما السلطان العثمانى سليم الاول ، والاخر طومانباى نائب والى مصر السلطان الغورى الذى قتل فى معركة « مرج دابق » أمام جحافل السلطان العثمانى
بانتهاى هذه المعركة ، أصبحت مصر ولاية عثمانية ، تابعة للسلطان العثمانى ، وظلت مصر منذ انتهاء هذه المعركة تحت الحكم العثمانى حتى جاء نابليون بونابرت بجيوشه فاحتلها ، وأبعدوها الى حد ما (١٨ من أكتوبر ١٨٠١ عن سلطة الدول العثمانية .

وفى هذه الفترة (١٥١٧ - ١٧٩٨) عاشت مصر تقاسى فى حياتها الاجتماعية والسياسية ، فى ظل النظام العثمانى الذى وضعه السلطان سليم الاول ، ثم هذبه الى حد ما السلطان سليمان القانونى ، وكان من الواضح كما أكد التاريخ ، أن البلاد كانت تتنازع السلطة فيها ثلاث هيئات ...

الوالى ... الذى كان يعينه السلطان .

رؤساء الجند ... وهم قواد الفرق التى كانت فى مصر ، وكانوا يشكلون فى مجموعهم ما يسمى بالديوان .

المماليك ... الذين كانوا يمثلون السلطة الثالثة فى البلاد .

كان من الواضح أن هذا النظام ، كان نظما فاشلا فقد ننازعت السلطة فى البلاد هذه الهيئات الثلاث ، وكانت كل هيئة تسعى الى تثبيت أقدامها ، وأدى هذا السعى الى التصادم بينها ، وأسفر هذا التصادم عن سيطرة المماليك على البلاد سيطرة جعلت المصريين يعيشون فى مذلة وبؤس . لا يشعرون بحريتهم التى يعشقونها ولا بسيادتهم التى كانوا يأملون فيها .

وكانت جميع النظم التى فرضت على البلاد نظما فاسدة ذات أثر سئىء فى حالة البلاد السياسية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية والصحية والعلمية ، فقد عاش الشعب يرزح تحت نير العبودية وظلام الجهالة ، فقد فتكت به الامراض ، وأفقرت الضرائب المتعددة ، التى فرضت عليه .

وكانت البلاد تتشكل من أربع طوائف :

العلماء ورجال الشرع : وهؤلاء كانوا يتولون قيادة البلاد الفكرية وزعامتها الأدبية والسياسية .

طائفة الملاك والتجار : وهؤلاء كانوا يسكنون المدن ، وكان فيهم عدد قليل من الاغنياء .

طائفة الزراعين : وكانوا يشكلون الشطر الاكبر من الأمة ، يعيشون في حالة يرثى لها من الجهل والفاقة ، وكانت زراعتهم في تقهقر وتأخر ، كما أنهم كانوا أكثر استهدافا لمظالم الحكام ، وفداحة الضرائب التي نحرمتهم ثمرة كدهم وتجعلهم في حالة فقر مستمر .

طائفة الصناع : وهؤلاء كانوا من الطبقات الفقيرة يباشرون صناعات صغيرة غير تقدمية .

وكان الشعب في مصر « مسلمين وأقباطا » ، يعيش في ظل ظلم الحاكم وسوء الادارة ، واشترك الاثنان معا في انشاعر والعواطف والرغبة في التحرر والسيطرة . والتقى عند آمال واحدة في التخلص من المظالم التي تعرض لها الشعب وعاش في ظلها .

وكانت مصر مقسمة من الوجهة الادارية الى ست عشرة مديرية يسمى كل منها اقليما (سنجقا) : تسعة منها في الوجه البحري ، والباقي في مصر الوسطى ومصر العليا ، وكان عدد السكان يبلغ ثلاثة ملايين ينقسمون الى حكام ومحكومين ، وواضح أن الحكام كانوا فئة المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد ، وأن المحكومين كانوا الشعب المصري مسلميه وأقباطه .

وكانت مصر في (١٧٦٣) - أي في الفترة السابقة للحملة الفرنسية تحت حكم واحد من المماليك - هو علي بك الكبير - استطاع خلال الحرب التركية الروسية (١٧٦٣) أن يعلن استقلال مصر وخروجه عن طاعة السلطان ، وامتناعه عن دفع الخراج ومنع ورود الولاة العثمانيين ، وضرب النقود باسمه ، وجرد الجيوش ، وفتح الجزيرة العربية ، فنادى به شريف مكة « سلطان مصر وخاقان البحرين » ثم مد يده لمعاونة طاهر العمر للتخلص من سلطة السلطان العثماني وبعث اليه محمد بك أبو الذهب الذي استطاعت الدولة العثمانية أن تتفق معه أن يتولى السلطة في البلاد ، فعاد الى مصر واستطاع أن يقتل سيده ، وأن يتربع على كرسى الولاية حتى مات في ١٧٧٥ فخلفه اثنان من المماليك هما مراد بك وابراهيم بك ، واستتب لهما الأمر وظلا يحكمان البلاد معا حتى ١٧٩٨ حين جاءت الحملة الفرنسية الى مصر .

هذه هي الصورة التي كانت عليها مصر والتي كان عليها الشعب المصري حين مرت البلاد بمرحلة جديدة في حياتها ونعني بها مرحلة قدوم الحملة الفرنسية الى مصر ، وبقائها بها فترة امتدت ثلاثة أعوام (٢ من يوليو ١٧٩٨ - ١٨ من أكتوبر ١٨٠١) .

الاتجاه إلى احتلال مصر

فكرة غزو مصر . . .

يؤكد المؤرخون أن الحملة الفرنسية على مصر هي مرحلة من مراحل التسابق على الفتح والاستعمار بين إنجلترا وفرنسا منذ القرن السابع عشر ، ولقد تطورت مراحل التسابق بين الدولتين تطورا كبيرا على أثر قيام الثورة الفرنسية ، فقد استطاعت جيوش فرنسا بقيادة نابليون بونابرت أن تخضع أوروبا وأن تنتصر في القارة الأوروبية، في حين ظلت إنجلترا بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار، بآمن من انتصارات نابليون ، ومن هنا اشتدت الرغبة في القضاء على إنجلترا وقهرها في مختلف الميادين ، ومن هنا أيضا برزت فكرة احتلال مصر كخطوة أولى نحو احتلال الهند بقصد ضرب إنجلترا في مستعمراتها . طالما أنها شديدة المراس قوية الشكيمة وليس من اليسير مهاجمتها في أرضها .

اختمرت فكرة غزو مصر في ذهن نابليون، بعد أن تمت له السيطرة الكاملة على جميع أجزاء إيطاليا .

ولا عجب في ذلك ، فـ نابليون كانت له مطامع بعيدة المدى وكان واضحا أنه صاحب مستقبل كبير في ميدان الفتح والغزو، كما أنه صاحب مستقبل كبير في مجال السياسة والحكم ، ولعله بعد أن استتب له الأمر في إيطاليا موطن يوليوس قيصر ، وعلى مقربة من مقدونيا موطن الاسكندر الأكبر تأقت نفسه الى مجد كمجد هذين البطلين ، وتطلع حوله فلم يجد الا مصر . ذات العظمة القديمة والتاريخ المجيد ، فداعبه أمل كبير في اقامة دولة شرقية عظيمة تكون قاعدة له يشب منها الى الشرق . ويرفع على أنقاض امبراطورية إنجلترا علم الامبراطورية الفرنسية .

الاعداد لفكرة الغزو . . .

أخذ نابليون يفكر في الخروج بهذه الفكرة الى حيّز التنفيذ فوجه غاية عنايته الى كل ما يمهد له هذا السبيل ، ومن أجل هذا اتخذ الخطوات التالية :

(أ) استولى على أسطول جمهورية البندقية لتتجمع في يده قوة بحرية تواجه قوة إنجلترا البحرية وتصمد أمامها ، ويستطيع بها أن يقضى على قوة إنجلترا في البحر المتوسط ،

وأن يجعل من هذا البحر بحيرة فرنسية كما جاء في مذكراته .

(ب) احتل « كورنو » بعض جزر البحر المتوسط لتكون قاعدة بحرية له ، يستمد منها أسطوله ما يحتاج إليه من مؤن وذخائر .

(ج) بعث الى حكومة الادارة في فرنسا - وهي الحكومة التي كانت تتولى الأمر فيها ، والتي ظلت قائمة حتى استبدل بها نابليون سنة ١٧٩٩ القنصلية - يقول « ان المواقع التي نحتلها على شواطئ البحر المتوسط تجعل لنا السيادة على هذا البحر ويجب علينا أن نرقب تطورات السلطة العثمانية التي أخذت تنهار دعائمها من كل جانب ، فعلينا اما أن نؤيدها ونمنع انحلالها ، أو نأخذ ما نستطيع من أسلحتها ويمكننا أن نحرم انجلترا مزايا سيادتها في الاقيانوس الاعظم ، فاذا كانت نازعتنا طريق رأس الرجاء فلنتجاوز عنه ، ولنحتل مصر ، فيكون لنا فيها الطريق المؤدى الى الهند ، ويسهل علينا أن ننشئ بها مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم . واذا أردنا أن نهاجم انجلترا فعلينا أن نهاجمها في مصر » .

(د) بدأ نابليون يعد جنوده لتقبل فكرته والايان بها ولهذا أخذ يدلى اليهم بتصريحات تحمل أمله ويحدثهم بأحلامه ، فهو مثلا في باسانو (١٠ من مارس سنة ١٧٩٧) يخاطب جنده قائلا لهم « ان اعلام فرنسا تخفق لأول مرة على ضفاف الادرياتيك على مقربة من مقدونيا القديمة التي نبت فيها الاسكندر واتجه الى مصر ، وأن مهمة كبيرة تنتظركم ، وهو أيضا يخاطب رجال الاسطول (سبتمبر ١٧٩٧) قائلا : « اننا عندما ننتهي من اخضاع القارة سنجتمع بكم لنحصل على حرية البحار ، وبدونكم لا نستطيع أن نحمل مجد فرنسا الا في مكان ضيق من القارة ، أما بكم فسنجتاز البحار وننشر عظمة الوطن في البلاد النائية » .

(هـ) جمع نابليون جميع ما كتب عن الشرق وعن مصر ، كما جمع وثائق وزارة البحرية الخاصة بمصر وانكب على دراستها دراسة عميقة ، وأصبحت مصر موضع دراسته وأبحاثه ومطالعته ، حتى نضجت فكرة احتلالها تمام النضوج في ذهنه وفكره وقلبه .

وجهتا نظر نابليون وحكومة الادارة . . .

وعندما عاد نابليون الى فرنسا كان همه الاكبر بل الأول ، اقناع حكومة الادارة بالموافقة على ما رسمه من خطط تجاه الشرق ، وبرغم أن آراءه كانت تختلف مع آراء حكومة الادارة الا أنه استطاع أن يحصل على موافقتها . ويجدر بنا أن نوضح وجهتي النظر في هذا الموضوع لأهميتهما .

(أ) **وجهة نظر حكومة الادارة . . .** كانت حكومة الادارة ترى وجوب ضرب انجلترا مباشرة ، أى غزو الجزر البريطانية ، ومن أجل هذا أعدت جيشا خاصا يقوم بهذه العملية ، أطلقت عليه اسم جيش انجلترا وكانت ترى فى مهاجمة مصر خطرا بالغا ينحصر فى عدة عوامل . . .

الاول : أن أسطول فرنسا سيلتقى قطعا بأسطول انجلترا ، وانجلترا مشهود لها بالكفاية البحرية والقدرة على القتال البحرى .

الثانى : ان غزو مصر سيثير غضب الحكومة العثمانية ، وبذلك يزيد عدد أعداء فرنسا واحدا . . .
ويصبح على فرنسا أن تواجه عدوين (انجلترا وتركيا) بدلا من أن تواجه عدوا واحدا . .

الثالث : كانت حكومة الادارة ترقب تدخل روسيا المستمر فى المسألة الشرقية ، ولهذا فقد كانت واثقة من أن روسيا ستنظر بعين الاعتبار الى غزو مصر ، وسوف تدلى بدلوها فيما ينتج عن هذا الغزو من مشكلات . .

الرابع : قبول حكومة الادارة فكرة احتلال مصر معناه ابعاد خير جيوش فرنسا وخير قادتها - نابليون - فى وقت قد تكون فى حاجة اليهم اذا تجدد القتال بينها وبين أعدائها فى القارة الأوروبية .

(ب) **وجهة نظر نابليون . . .** كان نابليون ينظر الى مشروعه من وجهة نظر رجل الحرب لا من وجهة نظر السياسيين فكان يرى استحالة نجاح أية حملة توجه مباشرة الى الجزر البريطانية ، لأن هذه الجزر كانت محصنة ضد أى هجوم بحرى ، هذا فوق الأساطيل الكثيرة التى كانت تمتلكها انجلترا والتى كانت تفرض بها سيطرتها الكاملة وسيادتها على البحار .

ومن ناحية أخرى فانه كان يقدر لنفسه فترة لا تتجاوز بضعة أشهر لوضع يده على مصر وتوطيد قدمه بها وهى بطبيعة موقعها الجغرافى مركز اتصال بين الشرق والغرب وملتقى التجارة المتبادلة بين القارات الثلاث .

كما أنه كان يأمل أن ينشئ قناة تصل البحرين المتوسط والأحمر فيسهل بذلك على السفن الفرنسية أن تصل الى البحر الأحمر وأن تهاجم أملاك انجلترا فى الهند .

كما أن احتلال مصر سيؤدى الى فرض السيطرة البحرية الفرنسية على البحر المتوسط ، ومن ثم الى انشاء دولة شرقية كبيرة تعوض فرنسا ما فقدته من المستعمرات .

الحملة الفرنسية واحتلال مصر

سرية الحملة وتكتم أمرها ..

اقتنعت حكومة الادارة بوجهة نظر نابليون واستقر الرأي على أن يكون يوم ٥ من مارس ١٧٩٨ هو موعد البدء ، وبذلت جهود كثيرة للاعداد للحملة ، فتكون جيش الشرق الذي زود بمعدات كثيرة وأكد المؤرخون أن الاعداد للحملة تم في سرية تامة وتكتم شديد حتى لا يتسرب الخبر الى الحكومة الانجليزية ، وقيل ان أحدا في فرنسا لم يكن يعلم سر الاعداد ووجهة الحملة الا نابليون وحكومة الادارة والمسيو «تاليران» وزير الشؤون الخارجية ، وبلغ من شدة المحافظة على السرية أن أطلق على الجيش الذي أعد للحملة اسم « الجناح الأيسر لجيش انجلترا » ، رغبة في أن يفهم أن الجيش يعد لغزو انجلترا في جزيرتها .

مطامع فرنسية سابقة في مصر ...

يتضح من تاريخ فرنسا ومصر أن حملة نابليون لم تكن أول حملة فرنسية على مصر وانما الثابت أن فرنسا كانت تطمح منذ زمن بعيد في خلال عصور مختلفة في احتلال مصر ...

وفي القرن الثالث عشر قاد « لويس التاسع » ملك فرنسا جيشا فرنسيا كبير العدد والعدة (٥٠ ألف مقاتل) واتجه به الى مصر ، ونزل في دمياط (١٢٤٩) ، ثم تقدم الى المنصورة حيث واجهته جيوش المصريين ، واشتبكت معه في موقعة المنصورة التاريخية (١٢٥٠) واستطاعت الجيوش المصرية الباسلة أن تقضى على جيش فرنسا ، فقتلت منه - ٣٠ ألفا - وأغرقت الكثير وأسرت ملكهم ، وألقت به أسيرا في دار « ابن لقمان » ... (حولت في عهد الثورة دار ابن لقمان الى متحف افتتحه الرئيس جمال عبد الناصر) وانتهت حملة لويس بالفشل وافتدى نفسه وجنده وخرج من الديار المصرية مدحورا .

وفي القرن السابع عشر استمع ملك فرنسا « لويس الرابع عشر » ، الى نصيحة فيلسوف ألماني يدعى « ليبنتز » بغزو مصر بدلا من غزو هولندا التي كان يستعد للزحف عليها (مصر هي الميدان الذي تضربونهم فيه) (يقصد الهولنديين) فهناك تجدون الطريق الحقيقي لتجارة الهند وهناك تستطيعون امتلاك زمام تلك التجارة ، وانتزاعها من يد الهولنديين

وتضمنون بسط سلطان فرنسًا وسيادتها في بلاد المشرق (٠٠) ولم يستطع لويس الرابع عشر تنفيذ هذه النصيحة لأنها قدمت إليه بعد أن دخلت جيوشه هولندا ، ولأنه من ناحية أخرى كان يحرص على صداقة تركيا رغبة في حملها على الانضمام إليه ضد الدول الأوروبية المعادية وفي عهد « لويس الخامس عشر » قفزت فكرة احتلال فرنسًا لمصر إلى مكان الصدارة في سياسته الخارجية « وخاصة أن الدولة العثمانية كانت في دور الانحلال واتجه في تحقيق ذلك إلى محاولة الاتفاق مع تركيا على التنازل عن مصر ، وكلف الدوق « دي شوازل » القيام بالسعى لدى تركيا ولكن لم تجر أية مفاوضات في هذا الشأن حتى كان « لويس السادس عشر » فتجددت الفكرة ، وأوفدت حكومته البارون « دي توت » إلى ثغور السلطنة العثمانية لدرس سواحل مصر ومواقعها ، وقدم توت تقريراً إلى الحكومة يعدد فيه مزايا احتلال مصر ويؤكد سهولة اتمامه ، ولكن المشروع طوى لاشتغال فرنسًا بحرب الاستقلال الأمريكية .

ودخلت العلاقات الفرنسية المصرية في دور الرغبة الأكيدة من جانب فرنسًا لاحتلال مصر وخاصة بعد أن وصلت إلى فرنسًا الشكوى المراء من سوء معاملة التجار الفرنسيين بها وظلت فكرة احتلال مصر في أذهان الفرنسيين حتى قامت الثورة الفرنسية وحتى تبناها نابليون واستطاع أن يخرج بها إلى حيز التنفيذ .



تحرك الحملة واحتلال مصر ٠٠٠

أتم نابليون الاعداد للحملة وأصبحت الحملة معدة للتحرك في نعور « جنوا » ، « طولون » ، « وأجاكسيو » و « سيفيتا فكييا » ، وكانت تتكون من ثلثمائة سفينة ، يحرسها أسطول مؤلف من ٥٥ سفينة حربية ، بقيادة « برويس » الذي كان يتولى القيادة من سفينة تسمى « أوريان » (أى الشرق) .

وفي ١٩ من مايو ١٧٩٨ أبحرت الحملة من طولون واتجهت لجزيره مالطة في ٩ من يونيو ، ثم غادرتها في ١٩ من يونية إلى الاسكندرية فوصلتها في الأول من يوليو ، وبدأت القوات تنزل في ليلة ٢ من يولييه وتم لها في هذه الليلة احتلال الاسكندرية .

وكان لابد لنابليون لاتمام احتلال مصر أن يضع يده على القاهرة بصفتها عاصمة البلاد ، فقسم جيشه قسمين ، سار الأول من الاسكندرية إلى رشيد ، ومنها إلى القاهرة على شاطئ النيل ٠٠٠ وسار الآخر من الاسكندرية إلى الرحمانية بطريق دمنهور ، ومنها إلى القاهرة ، ٠٠٠ والتقى الجيشان في الرحمانية ، ووصل إليها نابليون وأركان حربه .

وفي شبراخيت (١٣ من يوليو) التقى مراد بك مع نابليون فهزم مراد وتقهقر إلى القاهرة ليستعد للمعركة الفاصلة .

والتقى الجيشان بعد ذلك فى امبابة على مقربة من الاهرام واستطاع
جيش نابليون أن يقضى على جيش الماليك وفر مسراد بك الى الصعيد ،
وابراهيم بك الى الشرقية .

ومن المهم أن نوضح أنه فى اللحظة التى استتب فيها الأمر لنابليون
فى مصر بدأ المصريون يعدون أنفسهم للكفاح والتضال ضد الفرنسيين
رغبة فى طردهم ، وفى بقاء البلاد تحت سلطتهم وسيطرتهم وسيادتهم ،
وخاصة أنهم تخلصوا فى هذه اللحظات من سيطرة الماليك واستبدادهم ،
وظهر العملاق المصرى يكيل الطعنات لنابليون الذى دوح ممالك أوروبا وهز
عروشها واستباح أهلها ، وكانت معارك متعددة أثبت فيها المصريون أنهم
أصحاب الأرض ، الحريصون عليها ، وأنهم سادة البلاد ، لا كلمة الا
كلمتهم ، ولا سيادة الا لهم ، واستطاع المصريون باتحادهم والتفافهم حول
زعمائهم أن يواجهوا قوة الفرنسيين وأن يقفوا أمامهم موقف الند ، وأن
يخوضوا ضدهم المعارك فيسجلوا صفحات خالدة من الكفاح الشعبى
البطولى الذى هز التاريخ وسجل فيه بالمجد والفخار ، وظل كفاح المصريين
حتى انتهت الحملة الفرنسية ، وبأت بالفشل .

البَابُ الثَّانِي الحالة النفسية للمصريين وقت الحملة

- ١ - محاولة التقرب الى المصريين
- ٢ - مشاعر المصريين تجاه الحملة
- ٣ - عوامل الكراهية للفرنسيين

محاولة لتقرب إلى المصريين

مهما قيل فيما كانت عليه الأمة المصرية فى هذه الحقبة من التأخر ، فان الشعب المصرى أبى أن يستسلم لدولة معتدية تسعى الى احتلاله وتطمع فى خيراتہ ، ولعل نابليون قد أدرك ذلك منذ اللحظات الأولى التى بدأ يخطو فيها نحو تحقيق مشروعه باحتلال مصر ، ولهذا حاول أن يجتذب اليه قلوب المصريين وأن يتودد اليهم وأن يكسب ثقتهم ، لأنه كان يؤمن بأنه لن يستطيع تحقيق آماله ما لم يفز بثقة المصريين ، وما لم يجتذبهم الى جانبه .

ولكن خاب ظن نابليون ، وبرغم محاولاته المتعددة لكسب مشاعر المصريين وقف المصريون فى وجهه ، وكانت وقفهم هذه ذات آثار مباشرة على نتائج الحملة التى باءت بالفشل .

وقبل أن نتناول بالحديث كفاح الشعب المصرى ونضاله لا بد لنا من وقفة نوضح فيها كيف حاول نابليون أن يتقرب الى الشعب وأن يجتذب اليه قلوب المصريين ، فقد كانت لنابليون فى هذا المجال محاولات كثيرة تناولها الآن بالحديث :

١ - بدأت اول محاولة لنابليون قبل أن ينزل جنوده الى الاراضى المصرية ، اذ توجه الى جنده وحدثهم عن المعركة القادمة وأذاع عليهم منشورات متعددة يوصيهم فيها باحترام مشاعر المصريين واحترام شعائرهم الدينية وعدم التعرض لنسائهم ، وحذرهم الاعتداء على أموالهم وبيوتهم ، كما هدد وتوعد كل من يخالف هذه الاوامر بالعقاب الشديد ، وجاء فى احدى هذه المنشورات ، « منشور صادر فى ٢٢ من يونيو وأذيع على الجنود فى ٢٨ من يونيو ١٧٩٨ » ، « ايها الجنود انكم ستخوضون غمار حملة لها آثار لا تحصى فى حضارة العالم وتجارته وستنالون انجلترا بضربة هى اشد ما يصيبها فى الصميم . . ان الشعب الذى سنتصل به يدين بدين الاسلام وأول أركانه شهادة ان لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فلا تعارضوهم فى دينهم ، وعاملوهم كما عاملتم اليهود ، وكما عاملتم الايطاليين ، واحترموا مشايخهم وأئمتهم ، . . . وستجدون هناك عادات تختلف عن عادات أوروبا ، فعليكم أن تألفوها . وان الشعب الذى سنقيم بينه يعامل النساء على غير عادتنا ، والاعتداء على أعراض النساء جريمة لا يقدم عليها الا الوحوش . . . واعلموا أن النهب لا يعود بالنفع الا على طائفة قليلة من

الناس ولكنه يذنس شرفنا ويقضى على مواردنا ويجلب علينا كراهية الشعوب التي تقضى مصلحتنا بأن نكسب ودها ..

ولقد حرص نابليون بعد نزول قواته الى الاراضى المصرية على توجيه النظر الى مراعاة مشاعر المصريين ، والى عدم الاصطدام بهم في عقائدهم وعاداتهم ، ولم يفرق نابليون في توجيهاته بين القادة الذين يعملون تحت امرته وبين الجنود ، ولهذا نجده يوصى الجنرال كليبر الذى عينه حاكما على الاسكندرية ان « يبذل كل ما فى وسعه لاستبقاء العلاقات الحسنة مع الاهالى وابداء كل أنواع الاحترام للمفتين ورؤساء المشايخ فى المدينة » وسار كليبر فى ذات الطريق الذى حدده له قائده ، لانه احس ان المصريين ينظرون الى الفرنسيين بعين المقت والكراهية .

وحدث أن بعضا من بحارة الاسطول نزلوا فى ابى قير ، واغتصبوا بعض التجار ، وقطعوا بعض النخيل ، وأتلفوا بعض البيوت فأغضب ذلك كليبر وبعث الى الاميرال « برويس » قائد الاسطول يقول « انكم لا تقدرون عواقب هذا السلوك فى اثارة روح الكراهية فى نفوس الاهالى فى الوقت الذى نحن محتاجون فيه الى كسب قلوبهم » .

وأصدر كليبر منشورا الى جنده على أثر حادثة قتل فيها جندي فرنسي وثار زملاؤه ورغبوا فى الانتقام له قال فيه « أيها الجنود انكم ستستهدفون لمثل هذه الحوادث اذا خالفتم أوامر القائد العام واذ لم تحترموا أملاك الاهالى وعاداتهم ، وديانتهم ، ولقد رأيت من واجبي حماية للاهالى ومحافظة واطمئنانا عليكم ، ان أصدر الاوامر الآتية : .. كل من يدخل مسكنا لاحد المسلمين فى مكان النساء يعد محرضا على القتل والاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام .. كل من يتسلى بيتا من بيوت المسلمين أو غير المسلمين لاي سبب من الاسباب يعد سارقا ويحكم عليه بالاعدام .. من يصيد الحمام داخل المدينة بالآلات النارية وينشأ عن عمله تعريض حياة الاهالى للقتل والخطر يعد قاتلا ويحكم عليه بالاعدام .. كل من ينتهك شعائر المسلمين الدينية فى المساجد فى أثناء صلواتهم أو وضوئهم يعد محرضا على الاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام » .

ومما يجدر بالذكر فى هذا المقام ان كليبر حرص كل الحرص على بقاء العلاقات المصرية الفرنسية دون تكدير أو شقاق حتى انه عارض نابليون حينما طلب فرض ضرائب على تجار الاسكندرية ، فقد رأى فى فرض ضرائب جديدة اثارة لسخط الاهالى وغضبهم ، ولهذا تلتأ فى تنفيذ أوامر نابليون ، فلما عاتبه على ذلك وأمره بالتنفيذ أبى وقدم استقالته من وظيفته ، وطلب ان يتولى قيادة فرقته المحاربة ولكن نابليون أدرك ما يهدف اليه كليبر واستجاب لرغبته وأذن لارادته .

يبدو لنا اذن أن نابليون وقواده كانوا حريصين على المحافظة على مشاعر المصريين وعواطفهم وبذلوا جهدا كبيرا لاجتذابهم اليهم بمنع كل ما من شأنه ان يؤدى الى الاساءة الى العلاقات بين المصريين والفرنسيين .

٢ - قلنا ان العلماء كانوا يمثلون جانب القيادة بالنسبة للمصريين

وأدرك نابليون ذلك ، ولهذا اتجه الى العلماء ، وحاول أن يربط بينه وبينهم برباط المودة ، فقد كان يؤمن بأن كسب العلماء الى صفه يعنى كسب الشعب أجمع ولهذا نجده على أثر انتهائه من معركة الاهرام يطلب الاجتماع بكبار المشايخ زاعما أنه لاجل « راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة » ، ولما علم بأن المشايخ قد غادروا المدينة خوفا من الاحتلال بعث اليهم بالامان ، ودعاهم الى الحضور ليتشاور معهم في تأسيس حكومة أهلية يكون العنصر السائد فيها من المصريين .

والمتتبع لخطوات تأليف الديوان في القاهرة يرى ان نابليون استدعى المشايخ واجتمع بهم وطلب منهم اختيار عشرة ليكونوا أعضاء في الديوان ، ووقع الاختيار كما ذكر « الجبرتي » على المشايخ « الشرقاوى ، والبكرى ، والصاوى ، والفيومى ، والمهدى ، والسرسى ، والدمهورى ، والعريشى ، والشبراخيتى ، والدواخلى » .

ولعل مما يؤكد محاولة نابليون التقرب الى العلماء والمشايخ موقفه من الشيخ السادات - وكان من كبار العلماء وله نفوذ وجاه - إذ رفض السادات عضوية الديوان وعارض أمر نابليون باعتماد عضويته ، فلم يغضب نابليون لذلك وانما أظهر له الاحترام والتقدير ، وأمر بتعيينه على رأس لجنة عهد اليها فحص شكوى الافراد ، وكانت هذه اللجنة تضم المسيو « روستى » قنصل النمسا ، والجنرال « جونو » كما ان نابليون قام بزيارته في منزله وأبدى له شعوره حياله ، حتى أن « الجبرتي » يصف هذا الشعور بقوله « لم يتعرضوا » يقصد الفرنسيين « له في شيء ، وأفرجوا عن تعلقاته ، وقبلوا شفاعته وتودد اليه كبيرهم وأعاضهم » .

ومن هؤلاء الذين تقرب اليهم نابليون واکرمهم وقبل شفاعتهم ووثق بهم « الشيخ محمد المهدى » وكان له من النفوذ ما جعل الفرنسيين يتقربون اليه حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر . ولقد أسند اليه نابليون منصب سكرتير عام الديوان .

ولا يفوتنا ونحن في مجال الحديث عن سعى نابليون وقادته الى استرضاء المشايخ الى أن نشير الى موقفه وموقفهم من السيد/محمد كريم حاكم الاسكندرية حين جاءت الحملة الفرنسية ، وكان قد استبسل في الدفاع عن المدينة فقد قال له نابليون في مجلس من أعيان المدينة « لقد أخذتك والسلاح في يدك وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكنك استبسلت في الدفاع ، والشجاعة متلازمة مع الشرف ، لذلك أعيد اليك سلاحك » ، وعندما ألقى الجنرال كليبر القبض عليه بعث به الى الاميرال « برويس » ليحتفظ عليه عنده على ظهر البارجة «اوريان» ، وتلقاه هذا بالاحترام واکرم وفادته ، وعامله برفق ورعاية ، وبعث الى نابليون برسالة قال فيها « أرسل الى الجنرال كليبر منذ ثلاثة أيام حاكم الاسكندرية الوطنى ، فأفردت غرفة كبيرة له ولحاشيته وأنزلته منزلا كريما وانى أعامله بكل رعاية واحترام معتقدا أنى بذلك أحقق رغباتكم » وفى ٣٠ من يوليو ١٧٩٨ أرسل « برويس » السيد /

محمد كريم الى الجنرال « مينو » حاكم رشيد ليبعث به الى القاهرة وكتب اليه « انى لم أستطع أن أرفض وجاه المتكرر البالغ نهاية وكتب اليه « انى لم أستطع أن أرفض رجاء المتكرر البالغ نهاية التلطف « يقصد السيد\كريم » وأرجوكم اذا نزل برشيد أن تعاملوه باحترام » .

ان هذه المعاملة الرقيقة للعلماء والمشايخ من جانب الفرنسيين تؤكد انهم رغبوا فى توطيد علاقات طيبة معهم بقصد ايجاد جو من التفاهم والمودة بين الفرنسيين والمصريين ولكن متى نسى العلماء والمشايخ حق وطنهم عليهم ؟ .

لقد عاشوا حياتهم ثائرين داعين الشعب الى الثورة ضد الفرنسيين بل عاشوا حياتهم قادة لهذه الثورة واستطاعوا ان يثيروا المتاعب والقلق من حولهم ، مما ادى الى نتائج خطيرة كان من اثرها فشل الحملة الفرنسية على مصر وخروج الفرنسيين مدحورين مهزومين .

٣ - برغم اتجاه نابليون الى العلماء فهولم ينس أن يتجه الى المصريين أنفسهم .. الى الشعب رغبة منه فى أن يشعره بالطمأنينة والامان ، ولقد اتجه نابليون الى الشعب بكل مشاعره وعواطفه وطاقاته وامكانياته، وحاول بمختلف الطرق وتعدد الاساليب أن يجتذب الشعب اليه ، وأن يشعره بأن الحملة الفرنسية ما جاءت أساسا الا لانقاذه من حالة الفقر والجهل والمرض والتأخر التى أوجده فيها المماليك .

ولعل فكرة تخليص المصريين من حكم المماليك كانت الورقة الاولى التى لعب بها نابليون ، والتى بدأ بها محاولاته لكسب الشعب ، فهو فى يوليو ١٧٩٨ يصدر منشورا يتحدث فيه الى المصريين فى مودة وتعاطف ويوضح لهم هدف الحملة ، فهو يقول فى منشوره كما أورده الجبرتى « من زمان مديد والسناجق يتسلطون فى البلاد المصرية ويتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنسية ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى ، وحانت الآن ساعة عقوبتهم ، .. هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الجراكسة « فى الاصل الفرنسى المجلوبون من جورجيا والقوقاز » يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد فى كرة الارض كلها .. ايها المصريون قولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين .. ماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها ، من الجوارى الحسان والحيل العتاق والمساكن المفرجة ، فاذا كانت الارض المصرية التزاما للماليك فليقدموا لنا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا يبيئ أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور ، وبذلك يصلح حال الامة كلها » .

هذا المنشور يفهم منه أن نابليون جاء ليحارب المماليك لا المصريين ، وليوقع بهم العقاب لسوء معاملتهم للفرنسيين ولاعتدائهم على

التجار ، واساءتهم الى اهل البلاد بالمظالم التى يرتكبونها ، وهو بهذا الحديث يسعى الى استمالة قلوب المصريين اليه .

٤ - وأدرك نابليون مدى ايمان المصريين بدينهم الاسلامى ومدى تمسكهم بشعائره ، ولهذا وجه غاية عنايته الى المسألة الدينية ، فأثار في نظر المصريين اهتمامه بالديانة الاسلامية ، وأظهر لهم عنايته بكل ما يدعو اليه الاسلام ، وأعلنهم أن الحرية مكفولة الى اقصى حدودها لأقامة شعائر الدين ، ولا عجب في هذا فهو حين يخاطب المصريين للمرة الاولى يبدأ منشوره اليهم بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه » ، ثم يقول « اننى أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم » ، ثم هو بعد ذلك يدعو المشايخ والقضاة والأئمة ويخاطبهم بلغة رجل الدين فيقول لهم « قولوا لأمتكم ان الفرنسيين هم أيضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى ، وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردها منها » الكوارية « الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين » .

ونابليون يعد المشايخ والعلماء والشعب فى مصر بأن يقوم النظام فى البلاد فى حدود تعاليم ومبادئ القرآن ، فهو يقول فى رسالة له الى الشيخ محمد المسيرى الذى عين رئيسا لديوان الاسكندرية « اننى أتعشم ان يجيء الوقت الذى أستطيع فيه أن أجمع عقلاء البلاد وعلماءها وأن أضع نظاما موحدًا مؤسسًا على مبادئ القرآن ، تلك المبادئ الصحيحة التى تكفل للناس سعادتهم » .

ولعل من أبرز مظاهر اهتمام نابليون بالناحية الدينية اصراره على مشاركة المصريين فى احتفالاتهم الدينية وكان بذلك يهدف الى تخفيف حدة الكراهية التى كانت تبدو عليهم منذ احتلاله بلادهم ، فقد حدث ان احتفل المسلمون فى ٢٤ من أغسطس ١٧٩٨ بذكرى المولد النبوى ولم يترك نابليون هذه الفرصة تمر دون أن يسهم فيها تقريبا من المصريين ، وقد أمر نابليون بأن يقام الاحتفال كالعتاد وعين بمناسبة الاحتفال خليل البكرى نقيبًا للإشراف بدلا من السيد/عمر مكرم ، وخلع عليه خلعة ثمينة ، وصمم على حضور الاحتفال منذ بدئه حتى نهايته . وجلس على احدى الموائد ، وقد صفت عليها أطباق الطعام ، وقدم معاونة ماله ليخرج الاحتفال فى صورة مناسبة ترضى مشاعر المصريين ووصف «الجبرتى» الاحتفال فقال « . . وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل ، واجتمع الفرنسيات يوم المولد ولعبوا وضربوا طبولهم ودبادبهم ، وأرسل الطبلخانة الكبيرة - موسيقى الجيش - الى بيت الشيخ البكرى ، واستمروا يضربونها طول النهار والليل بالبركة » يقصد ميدان الازبكية « وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة ، وصواريخ تصعد فى الهواء . . . » .

وانتهز نابليون فرصة أخرى وهى فرصة خروج الحجاج الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، فعين مصطفى بك كتخدا الباشا « وكيل

الوالى « أميرا للحج في سبتمبر ١٧٩٨ وخلع عليه خلة خضراء بحضور أعضاء الديوان ، وأهداه جوادا كريما وأبلغ هذا التعيين رسميا الى جميع الدول الاسلامية والى شريف مكة كما قرر ارسال أوقاف الحرمين .

وانتهز نابليون فرصة حلول شهر رمضان فأمر بالاحتفال بآثبات الرؤية احتفالات عظيمة ، حتى أن المحتسب سار بموكب كبير الى بيت نابليون بالازبكية ، وأبلغه رؤية الهلال ، وبألف نابليون في الحفاوة به .

وفي أغسطس ١٧٩٩ جرى الاحتفال بوفاء النيل ورأسه الجنرال « دوجا » الذي كان معينا قائمقاما للقاهرة وكتب الشيخ أحمد العريشي قاضي قضاة مصر حجة الوفاء ، وذكر « الجبرتي » في هذا الصدد « وأكثر الفرنسيين في تلك الليلة وصباحها من رمى المدافع والصواريخ من المراكب والسواحل ، وباتوا يضربون أنواع الطبول والمزامير ، وفي الصباح ركب « دوجا » قائمقام القاهرة وصحبته أكابر الفرنسيين وأكابر أهل مصر ، وحضروا إلى قصر السد وجلسوا به ، واصطفت العساكر بين الروضة وبر مصر القديمة بأسلحتهم وطبولهم ، وبعضهم في المراكب لضرب المدافع المتتالية إلى أن انكسر السد وجرى الماء في الخليج فانصرفوا وقد ترجم علماء الحملة الفرنسية وثيقة حجة الوفاء إلى لغتهم ونشرت هذه الوثيقة في كتاب تخطيط مصر . »

بهذه الوسائل المختلفة في مجال الدين سعى نابليون الى اجتذاب قلوب المصريين . وحاول ان يوضح ويؤكد للعالم الاسلامى انه ليس عدوا للمصريين ولكنه صديق لهم يحترم شعائرهم ، ويعمل على تنفيذ تعاليم دينهم ومن الطبيعى انه اراد بذلك ان يتقرب للناس ليأمن جانبهم ولكن المصريين المسلمين يعرفون تماما ان دينهم ، أقر الحرية ودعا الى مقاومة الطغيان والاستبداد ، ودفع كل ما يضر بالعباد ويسىء الى البلاد ، ولهذا لم تنجح محاولات نابليون في اخماد شعلة الوطنية المتأججة في نفوس المصريين المؤمنين بحقوقهم وبحريتهم .

ومما يؤكد صدق ما نذهب اليه ان نابليون اقام احتفالا كبيرا في القاهرة في ٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨ بمناسبة عيد الجمهورية الفرنسية ، ودعا المصريين الى المشاركة فيه ، وكان مما اقامه في هذا الاحتفال سارية عظيمة في ميدان الازبكية أطلق عليها اسم « شجرة الحرية » وقد قال « نيقولا الترك » وقد شهد هذا الاحتفال تعليقا على هذه الشجرة ما يوضح مشاعر المصريين خلال هذا الاحتفال « ان الفرنسيين كانوا يقولون ان هذه شجرة الحرية ، أما أهالي مصر فكانوا يقولون ان هذه اشارة الخازوق الذي أدخلوه فينا ، واستيلائهم على مملكتنا ، واستمر هذا العامود نحو عشرة أشهر ، وحينما رفعوه استبشر أهل مصر وابتهجوا بالفرج » .

ومما يدل أيضا على نفسية المصريين وعدم تجاوبهم مع الفرنسيين ما ذكره الدكتور « ديجنت » كبير أطباء الجيش الفرنسى من أن هذه الاحتفالات لم يكن لها أثر فى سكان القاهرة وكذلك الأمر الذى أصدره الجنرال « برتسييه » رئيس أركان حرب الحملة الى الجنرال « ديبويه »

بأن يضع حرسا بناحية قنطرة الدكة التي كان يدخل منها ماء الخليج الى ميدان الازبكية خوفا من أن يعتمد المصريون الى فتح السد فتتلفى المياه على مكان الاحتفال فتعكر صفوه .

هـ - اتجه نابليون الى تنظيم المجتمع المصري وإزالة ما علق به من أسباب التأخر ومحاولة النهوض به في مختلف نواحيه وكان دافعه الى ذلك رغبته الاكيدة في أن يشعر المصريين أنه ما جاء الى أرضهم الا لرفع الظلم عنهم واصلاح شؤون حياتهم ، وانقاذهم من انواع العنت والظلم والجهالة والارتقاء بهم الى مستوى يليق بمكانتهم ، ولا شك في أن نابليون كان يريد بهذا أن يوجد نوعا من العلاقات الطيبة بينه وبين شعب مصر ، فيأمن بذلك جانبه ، ويضمن استقرار الاحوال في البلاد حتى يتفرغ هو الى تحقيق مشروعه الاستعماري الكبير ، ولهذا أسرع نابليون بعد أن استتب له الامر على أثر انتصاره في معركة الاهرام وفرار مراد بك الى الصعيد ، وابراهيم بك الى الشرقية ، بإنشاء ديوان القاهرة ليتولى هذا الديوان الاشراف على المدينة وادارة دفة الاعمال بها ، وعين عشرة من المشايخ والعلماء أعضاء في هذا الديوان ، واختير الشيخ محمد المهدي سكرتيرا له ، وبذلك أصبحت السلطة المدنية في القاهرة في يد الديوان أى في يد العلماء ، هذا في الوقت الذي كانت السلطة العسكرية في يد نابليون .

ولم يقتصر الامر على انشاء ديوان القاهرة ، وانما امر نابليون بتعميم نظام الديوان في جميع مديريات القطر المصري ، وفي ٢٧ من يوليو صدر أمر يقضى بأن يتألف في كل مديرية ديوان من سبعة أعضاء يسهرون على مصالح المديرية ويباشرون اعمال الامن في داخلها ، ويقوم الديوان بجباية الضرائب والنظر في شكوى الأهالي .

واتخذ نابليون بعد ذلك خطوة ثالثة ، اذ دعا اعيان العاصمة والاقاليم الى الاجتماع في جمعية عامة أطلق عليها اسم الديوان العام « ٤ من سبتمبر ١٧٩٨ » ، وأصبح من اختصاص هذا الديوان الذي شكل « من الاشخاص الذين لهم نفوذ بين الاهالي ومن الذين امتازوا بمركزهم العالي وكفائتهم » وضع النظم المالية والادارية والقضائية للبلاد ، ورأى نابليون أن يضم الى الديوان عالين من علماء الفرنسيين يتوليان عرض المشروعات على الديوان وادارة المناقشات فيه ، وألقى نابليون على عاتقها مهمة خطيرة هي على حد قوله في رسالته اليهما « يجب أن تفهما الاعضاء اننا لا نقصد الا توفير السعادة والرفاهية للبلاد التي تشكو من سوء نظام الضرائب الحالي ، كما تشكو من طريقة تحصيلها ولقد اجتمع هذا الديوان في اكتوبر وألقيت فيه خطبة الافتتاح التي جاء فيها « لم يبق بأبدى الناس الا القدر اليسير وسار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم ، وأن طائفة الفرنسيات بعد أن تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحروب اشتاقت لاستخلاص مصر مما هي فيه وراحة أهلها من تقلب هذه الدولة « يعنى الدولة التركية » المفعمة جهلا وغباوة فقدموا وحصل لهم النصر ، ومع ذلك لم يتعرضوا لاحد من الناس ولم يعاملوا الناس

بقسوة ، وأن غرضهم تنظيم أمور مصر واجراء خلجانها التي دثرت ، فيصير لها طريقان طريق الى البحر المتوسط وطريق الى البحر الاحمر ، فيزداد خصبها وريعها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك استجلابا لحواطر أهلها ، وإبقاء للذكرى الحسنة ، ٠٠٠ وأن هذه الطوائف المحضرة من الاقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة لانهم أهل خبرة وعقل ، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج من ذلك ما يليق صنعه » .

من هذا الخطاب يتضح أن نابليون أراد أن يشعر المصريون أنهم أصحاب الامر والنهي في بلادهم ، وأن جيوشه ما جاءت الا لتؤكد هذا المعنى ، ولتأخذ بأيديهم الى مناصب الحكومة ، فيحكموا أنفسهم بأنفسهم ، ويديرون أعمال البلاد بما تمليه مصالحهم ، وبذلك يرتقى أمرهم وينصلح حالهم .

وألقى نابليون بين أيدي العلماء بمختلف السلطات . وتركهم يديرون أمور القضاء المدني منه والجنائي ، ويضعون تشريعات خاصة بالارث وفرض الضرائب ، وتسجيل العقود . وكان هذا النظام جديدا في حياة مصر . فقد جعل للمصريين حقوقا في حكومة البلاد ، وسعى الى تدعيم الصناعة في البلاد والى اجراء اصلاحات كثيرة بها في مجالات الصحة العمومية فأنشأ مثلا محاجر صحية ومستشفيات ، ووضع لوائح النظافة المدنية ، ثم أمر بإنشاء طواحين الهواء ، وأصلح دار الصناعة ، وأنشأ مصنعا للبارود ، وآخر للجوخ ، وآخر للديغ الجلود ، ومصنعا للنجارة ، وأصلح مقياس النيل ، وأقام الجسور ، وهذب الشوارع وغرس على جوانبها الأشجار ، وأقام المسارح لتمثيل الروايات ، وكلف علماء النهوض بجميع نواحي البلاد .

ونابليون بهذه الامور كلها أراد أن يتقرب الى المصريين وأن يشعرهم أنه ما جاء مستعمرا وانما جاء مصلحا ، لا يبقى مصلحة فرنسا بقدر ما يهدف الى صلاح الامور في مصر ، وبرغم الاصلاحات الكثيرة التي ادخلها والنظم التي اقامها لم يستطع أن يكسب شيئا من عاطفة المصريين ، لان هؤلاء نظروا الى الحملة الفرنسية منذ نزلت الجنود الفرنسية في أرض مصر ، نظرة تنم عن الكره الشديد للمحتل الذي جاء يحتل بلادهم ، ويفقدتهم حريتهم .

وكانت هذه النظرة من جانب المصريين عاملا كبيرا في رفض المصريين لكل ما هو فرنسي ، وعاش المصريون جميعا يتطلعون الى اللحظات المناسبة للانتفاض على الفرنسيين وطردهم خارج الديار المصرية ، ولقد كان لموقف الكراهية هذا اثر كبير اذ عجل بنهاية الفرنسيين في مصر ، وجعل مدة اقامتهم فوق الاراضي المصرية قصيرة دون أن يتحقق لهم أى أمل من الآمال الكبيرة الواسعة التي كانت تداعب خيالهم حين خرجوا من موانئ فرنسا الجنوبية متجهين الى الاراضي المصرية .

وهناك عامل آخر هام لا بد من أن تسلط عليه الاضواء ، فالامة

المصرية أعرضت عن نابليون ولم يكن لوعوده أو لتقربه الى المصريين أو لاصلاحياته المتعددة التى أدخلها على نظم الحكم وعلى الحياة الاجتماعية ، أى أثر فى نفسية المصريين ، لانهم أدركوا بنظرتهم العميقة الى وقائع التاريخ وأحداثه ، ان نابليون اتخذ ذات السلاح مع غير مصر من الأمم التى غزاها ، وانه لم يبر بوعده لامة من الأمم التى فتحها ، وانه استغل جميع البلاد التى استسلمت لجحافل استغلالا بعيد المدى يخدم مصالحه وأغراضه .

وأدرك المصريون ان نابليون كان يهزأ بحرية الأمم ولا يقيم وزنا لاستقلال الشعوب ، لهذا أبى المصريون ان يكونوا أداة مسخرة فى ايدى نابليون يحقق بها أطماعه وينفذ بها مشروعاته ، ويفرض بها سيطرته على الشعوب ، ولقد اعترف فرنسيون كثيرون بهذه النظرة العميقة الصحيحة من جانب المصريين ، ومن هؤلاء المسيو « مارتان » وهو من مهندسى الحملة ، فقد قال فى كتاب له أرخ فيه تاريخ الحملة الفرنسية على مصر « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر ، فانهم لم يستقر لهم قرار فى البلاد ، وكان مركزهم فيها مزعزعا ومحفوفا بالمتاعب ، ولم يترك الاهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية الا اتباعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضمن هذه المقاومة » .

وقال المسيو « ريبو » فى كتابه الذى تحدث فيه عن الجانب الحربى والعلمى للحملة الفرنسية « كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغ أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ، ويستهدف للأخطار ويحتل بلادها ويخوض فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها ، ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكلمات الفخمة فى تغيير حالة الشعب النفسية » .

مشاعر المصريين تجاه الحملة

قبل أن نخوض في حديث النضال الشعبى فى مصر ضد الحملة الفرنسية يهمننا أن نبرز نقطة هامة وهى : كيف قابل المصريون الحملة الفرنسية على الأراضى المصرية ؟ ونحن باثارتنا هذه النقطة انما نهدف الى تبيان حقيقة مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين خاصة ، وتجاه أى مستعمر بصفة عامة .

فالمصريون جبلوا على حب الحرية وعلى احترام سيادتهم وعلى صون استقلالهم وهذه حقيقة يؤكدها تاريخ النضال المصرى فى العصور المختلفة ، فالمصريون عاشوا حياتهم يؤمنون بالحرية ويقدمون استقلالهم ويعتزون بسيادتهم حتى فى الفترات التى اضطروا فيها الى الاستكانة تحت ضغط مستعمر أو مغتصب ، فهم فى هذه الفترات طروا ضلوعهم على آمالهم ، وانتظروا لحظة الخلاص لينطلق العملاق المصرى يحقق لهم حريتهم وسيادتهم واستقلالهم .

حين خرج نابليون بأسطوله قاصدا الأراضى المصرية كانت انجلترا له بالمرصاد وأن الاميرال « نلسون » يقود أسطوله باحثا فى مياه البحر الأبيض عن الأسطول الفرنسى ليقضى عليه وليغرق آماله وأحلامه فى قاع البحر المتوسط ، وحدث أن وصل أسطول نلسون الى الاسكندرية فى ٢٨ من يونيو سنة ١٧٩٨ ، فى حين كان الأسطول الفرنسى فى مألطة وحاول نلسون اقناع السيد/محمد كريم بدخول الاسكندرية ليصد الفرنسيين عند حضورهم ، الا أن الحاكم رفض هذا الطلب ظنا منه أنها خديعة تستهدف نزول القوات البريطانية الى أراضى مصر ، فغادر نلسون بأسطوله المياه المصرية ، وبعد فترة وصل نابليون بأسطوله ، وأمر أن تنفصل السفينة «جونون» وأن تتقدم الى الاسكندرية لتبلغ قنصل فرنسا بوصول الحملة ولم تستطع السفينة الوصول الى الشاطئ فعدت ومعها قنصل فرنسا الذى نقل الى نابليون صورة متكاملة لحالة الهياج العنيف التى عمت الاهالى ، مما دعاهم حين علموا باقتراب الحملة الى اعتقال جميع الفرنسيين كرهينة ، والى جمع السلاح وحملة للدفاع عن مدينتهم ، والى الاستنجد وطلب العون ممن حولهم من الاهالى والعرب وقد وصف المسيو « فيفيان دينون » مشاعر المصريين وحالتهم النفسية حين علموا بوصول الأسطول الفرنسى فى كتاب له « قدم الينا قنصلنا بصحبته ترجمانه ، وقد خالطه الرعب ، بعد أن نجا من القتل ومن هياج الشعب ، وأخبرنا أن أسطولا انجليزيا مؤلفا من أربع عشرة بارجة حربية كان بالشعر ولم يغادره الاغشية أمس الاول ، وأن الانجليز صرحوا بأنهم قادمون للتفتيش عنا

ومحاربتنا وقد ظنهم الاهالى فرنسيين ، فانفجر بركان الهياج فى البلاد كلها لشعورهم باقتربنا ، وكانوا يتوقعون ذلك من يوم أن علموا باحتلالنا لمالطة ، وقد استعدوا للمقاومة فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال ، ويجمعون جيشا من العرب » .

وجاء فى مذكرات الكولونيل « سلكوسكى » احد ضباط الحملة أن الخبر الذى أزعجنا هو قدوم الاسطول الانجليزى الى الاسكندرية ومغادرته اياها قبل وصولنا ، وقد انزعجت له البلاد وظنه الناس أسطول الفرنسيين الذين يتوقعون حضوره منذ مدة ، ومن يومئذ أخذ جميع الاهالى يعدون العدة للمقاومة ، فحملوا السلاح وانضم اليهم المغاربة من ضواحي الثغر ، وتحصنوا بالاسوار فى حين كان اربعمائة من الفرسان يجوبون الضواحي استعدادا للقتال » .

وعندما لاح الاسطول الفرنسى وأصبح فى حدود النظر ارسل السيد / كريم ثلاثة عشر ساعيا الى القاهرة لينبئ المسئولين بوصول الفرنسيين ، وبذل معه أهل الاسكندرية كل ما فى استطاعتهم لمقاومة الغزو وللمدفاع عن المدينة ، وحصنوا الاسوار ، وأمدوا القلاع بالذخيرة ، وأعدوا السلاح ، وحمله القادرون منهم ، ووضعوا المدافع فى أماكنها على أسوار المدينة ، وجهزوا جماعة من الفرسان لتقوم بمناوشة الفرنسيين عند نزولهم ، ووقف الاهالى محتشدين حاملين السلاح مشاة وركبانا ، رجالا ونساء ، صغارا وكبارا يطلقون النيران ، ويقاومون الغزو ، الا أن الفرنسيين استطاعوا أن يتغلبوا عليهم لكثرة عدتهم ولتميز سلاحهم .

المهم هو أن الاهالى منذ اللحظة الاولى وقفوا يناوئون الجيوش الفرنسية ، ويصدونها عن ديارهم وبذلوا فى سبيل ذلك الارواح ، وسجلوا شجاعة منقطة النظر حتى أن رجلا وامرأة ، اختفيا وراء احدى النوافذ واطلقا النار على « بونابرت » وسكرتيه الخاص وكادا يقتلانهما لولا أن جنود الحرس تنبهوا لهما وهاجموهما وقتلوهما .

ولا شك أن المصريين فى مقاومتهم الاولى للجنود الفرنسية أنزلوا بهم خسائر فادحة ، فأصيب الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته وأصيب الجنرال مينو بضربة حجر ، وأصيب الجنرال « أسكال » كما قتل اللواء « ماس » .

ولقد شهد الاعداء بعظم المقاومة المصرية ، فالجنرال « برتية » كتب الى وزارة الخارجية الفرنسية يقول « ان الاهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت » والجنرال « مينو » كتب الى نابليون يقول « أن الاعداء (يقصد الاهالى) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة ، وثبات عظيم » .

وبرغم انتصار الفرنسيين ووصولهم الى القاهرة فان مشاعر المصريين لم تتغير حيالهم ، وليس أدل على ذلك من أنه حين عاد الاميرال « نلسون » الى أبى قير وشاهد الاسطول الفرنسى وتقدم ناحيته ليدخل معه فى معركة فاصلة ، كانت سفينة مصرية تتقدم أسطوله تحمل فوق سطحها جماعة

من المصريين يرشدون الأسطول الانجليزى الى مسالك البحر ، ولا يختلف اثنان فى ان الدافع الذى جعل هؤلاء المصريين يتقدمون لمعاونة الانجليز هو دافع وطنى تملكهم فأقدموا هادفين الى الحاق أية هزيمة على أى مستوى بالفرنسيين الذين تحت ضغط القوة احتلوا بلادهم ، ولقد أكد هذه الرواية الضابط الفرنسى « شاربيه » اذ قال « فى منتصف الساعة الخامسة مساء شاهدنا فى عرض البحر سفينة مصرية قادمة من الاسكندرية تتصل باحدى السفن الانجليزية ولم تنفصل عنها بالرغم من أن السفينة «البرت» أطلقت عليها عدة قنابل » .

وكان من الطبيعى أن يواجه المماليك فى مصر جيش الفرنسيين دفاعا عن وجودهم ، والشئ الجديد الذى يجب أن تسلط عليه الاضواء هو قيام المصريين بدور كبير فى المقاومة ومعاونتهم الصادقة للمماليك ، لا حبا فى المماليك ولا ميلا اليهم ، انما حبا لبلدهم رغبة فى صيانتها من عبث الفرنسيين .

ومن أجل هذا يجد المتعمق فى دراسة تشكيل جيش مراد بك الذى خرج لمواجهة الفرنسيين فى شبراخيت ، أن ثلاثة آلاف فقط من مجموع الجيش البالغ ١٢ ألفا كانوا من فرسان المماليك ، والباقي تسعة آلاف ، أى أن الغالبية العظمى للجيش الذى خاض غمار معركة شبراخيت كانت من الفلاحين ، الذين لم يكونوا يملكون سلاحا كافيا فحملوا العصي يواجهون بها مدافع الفرنسيين ، ولقد كان للمصريين دور كبير فى هذه المعركة ، فقد خرجت الألوف من الاهالى تهاجم أسطول الفرنسيين المتقدم فى النيل ، فأغرقت منه خمس سفن واستولت على سفينتين مسلحتين وجرحت الأميرال « بيرى » .

وكان المصريون يقاتلون بايمان وقوة حتى ذكر كثير من المؤرخين أن الهزيمة كانت أقرب ما تكون الى الجانب الفرنسى فى هذه المعركة .

وبرغم انهزام المصريين فى هذه المعركة الا أنهم لم يفقدوا القدرة على المقاومة ، فقد أحسوا بخطورة الدور الملقى على عاتقهم وبدءوا يهتمون بشئون الدفاع عن القاهرة ، حيث ستدور الموقعة المقبلة وأشاد المؤرخون بأهالى القاهرة - الذين عانوا من ظلم المماليك - وهم يغادرون ديارهم ليدافعوا عن عاصمة بلادهم فى وجه الجيش الزاحف ، وبدأ الشعب المصرى أرقى نفسا ، وأنبىل قصدا من حكامه الظالمين ، فأقاموا المتاريس وأغلفوا الاسواق ، وجمعوا المال ، ورتبوا شئون المقاومة ، وجهزوا أنفسهم بالسلاح والزاد ، وكما يقول « الجبرتى » ان جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى مقدورهم وطاقاتهم وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم ، فلم يشح أحد فى ذلك الوقت بشئ يمتلكه » .

وفى بولاق تجمع المصريون جميعا يقاومون ويدافعون ، يقتلون ويقتلون ، حتى كانت النهاية المفجعة التى أدى اليها سوء القيادة التى كان يتولاها المماليك « ولقد وضع دور المصريين فى هذه المعركة وضوحا بالغاً ، لاسبيل الى انكاره ، حتى أن المسيو «تيررس» ذكر فى كتابه تاريخ

الثورة الفرنسية أن قوة من الفلاحين تبلغ ٢٤ ألفا كانت تدافع عن قرية امباية ، وذكر الجنرال « برتييه » فى كتابه عن حروب بوناپرت فى مصر وسورية « استولى الفرنسيون على قرية امباية بعد ان دافع عنها نحو ١٥٠٠ مملوك ومثلهم من الفلاحين دفاع الابطال ، ورفضوا التسليم فماتوا قتلى وغرقى وأشار نابليون فى مذكراته الى دور الفلاحين - ويعنى بهم المصريين - فى المعركة ، كما أشار الى ذلك كثير من الكتاب الفرنسيين نذكر منهم « ريبو » « ودى لا جونكيير » « وريكاردو » .

هذه صورة للقاء الأول الذى تم بين المصريين والفرنسيين ومما يجب الاشارة اليه أن المصريين اندفعوا لمقاومة الفرنسيين منذ اللحظة الأولى بوازع من وطنيتهم ، وبدافع من اخلاصهم لبلادهم ، ولم يكن للمماليك دخل فى هذه الجموع التى احتشدت متطوعة للدفاع عن البلاد ، واذا كانت هذه الصورة قد أوضحت مدى الكره الذى ملا قلوب المصريين من ناحية الفرنسيين ، فان هذا الكره قد ازداد عنفا وشدة بعد أن استتب الامر للفرنسيين فى مصر ، حتى أن المصريين عاهدوا أنفسهم على العمل المستمر والكفاح المتصل للقضاء على الفرنسيين ، مهما بذلوا فى ذلك من دماء وأرواح ، ومهما كلفهم ذلك من تضحيات وخسائر ، لانهم كانوا يدافعون عن بلادهم ٠٠ عن أرضهم ٠٠ عن وطنهم ٠٠ وهذه حقيقة لا سبيل الى اخفائها أو انكارها ، فالمعروف كما أثبت التاريخ أن المماليك حين هزموا أمام جحافل الفرنسيين غادروا مصر ، فمراد بك اتجه الى الصعيد ، وابراهيم بك اتجه الى الشرقية ثم غادرها الى سورية ، وأصبح عبء الدفاع عن البلاد موكولا الى أهلها والمصريون هم فى واقع الأمر أحق الناس بالدفاع عن بلادهم ، وأحق الناس بصد العدوان عنها ، وأحق الناس بالحفاظ عليها حرة مستقلة ولقد قام المصريون بدورهم فى شجاعة وصبر ، فقد كانوا يقاتلون عدوا يفوقهم فى الفن الحربى ويفوقهم فى كثرة السلاح وغزارته ، واستطاعوا أن يتموا الدور ، وأن يحققوا أملهم فى التخلص من الفرنسيين حين أجبروا الحملة الفرنسية على مغادرة البلاد فى أكتوبر سنة ١٨٠١ ، ولم يمض على نزولهم بها ثلاث سنوات .

عوامل الكراهية للفرنسيين

سبق القول أن البلاد لم تقبل خضوعها للفرنسيين لأنها نظرت اليهم نظرتها الى قوم محتلين أرادوا أن يسلبوها حريتها واستقلالها وأن يتخذوا منها السبل المختلفة لتحقيق أهدافهم ومطامعهم ، وقلنا أن العامل الوطني كان الدافع الأول بل الدافع الأكبر لثورة المصريين ضد الفرنسيين ، كان هو القوة المحركة لمشاعرهم وعواطفهم والنار التي اشتعلت في جنباتهم، والوقود الذي زادهم انفعالا واندفاعا .

ولقد قامت بجانب هذا العامل الوطني عوامل أخرى كانت من أسباب اثرة المصريين ضد الفرنسيين ، فبرغم ما وعدت به القيادة الفرنسية من مراعاة مشاعر الاهالى ومصالحهم ، وعدم مس هذه المصالح ، وقعت القيادة الفرنسية فى أخطاء متعددة أدت الى زيادة البركان ، والى امتداد الثورة ، والى تكتل المصريين جميعا .

١ - ولعل فرض الضرائب كان من الأخطاء الجسيمة التي وقع فيها الفرنسيون ، فالمتتبع لظروف البلاد الاقتصادية فى عهد ما قبل الحملة الفرنسية - ونعنى به عهد المماليك - يلمس بوضوح وجلاء أن الفلاحين - وهم الغالبية العظمى للسكان - كانوا يعيشون فى مذلة محرومين من خيرات أرضهم ، يملكون النذر اليسير من الاراضى يتوارثونها ولكن ملكيتهم كانت معلقة على دفع الضرائب والاتاوات المفروضة عليهم للملتزمين الذين كانوا هم الملاك فى حقيقة الامر ، فقد كانوا يتصرفون فى الارض تصرف المالك فى ملكه ، ويبسطون أيديهم على ما يروق لهم منها ، وكذلك كان التجار يشكون من الشكوى من مصادرة متاجرهم ومن خضوعهم لنظام ضرائبى يثقل كاهلهم ، وكانت الضرائب عبئا ثقيلا على جموع الشعب ، وكانت كثيرة متنوعة ، وكذلك-الاتاوات على الصناعات والمأكولات والمتاجر ، حتى أن المسيو « ستيف » أحصى دخل الحكومة فى أواخر عهد المماليك بمبلغ ١٢٠٣٤٦٧ جنيها وهذا المبلغ يبين فى وضوح اسراف حكومة المماليك فى المظالم وارهاق الاهلين بمختلف الاتاوات والضرائب ، مما أدى الى سوء الحالة الاقتصادية فى البلاد .

وعندما جاء الفرنسيون لم يقوموا بدراسة أحوال البلاد الضرائبية دراسة سليمة ، فقد كان همهم الأكبر جمع ما يستطيعونه من مال يواجهون به نفقات الحملة ، ولهذا أنشئوا فى كل مديرية مكتبا لتسجيل العقود ،

اذ أعلنوا عدم اعترافهم بالملكية الا اذا سجلت بعقود وسندات وفرضوا رسوما على التسجيل ، لم تكن مقروضة من قبل ، كما أنهم أعلنوا أن الملكية التي لا تسجل في خلال ثلاثين يوما تنتزع من أصحابها وتصادر لجانب الجمهورية الفرنسية ، كما قرروا تسجيل عقود البيع والبدل والتنازل والهبة في مدى عشرة أيام من تحرير العقد والا اعتبر باطلا ، وفرضت على هذا التسجيل أيضا رسوم ، وهذه الرسوم كانت ضرائب جديدة لم يتعودها الاهالى من قبل ولم يدفعوها ، ولهذا ضج منها الاهالى .

كما فرض الفرنسيون ضرائب سنوية على جميع أصحاب الحرف والصناعات مما جعلهم يسخطون على الاوضاع الجديدة التي أثقلت كاهلهم بضرائب جديدة ، ونظر المصريون الى هذه الضرائب على أنها وسيلة لسلب ومصادرة أملاكهم ، أو كما يقول الجبرتي « بحايل على أخذ الاموال » ، وكان تقرير هذه الضرائب من أهم الاسباب التي نفرت المصريين من حكم الفرنسيين وجعلتهم يتباحثون في أمرها ، ويفضون الى أنفسهم بالشكوى المرة ، ثم يتجهون بعد ذلك الى الاندفاع في طريق الثورة ضدهم .

٢ - وواضح من تاريخ الحملة الفرنسية على مصر أن الفرنسيين صدموا حين جاءوا الى مصر ، فقد كانوا يتوقعون أن يجدوا فيها صورة لما وجدوه في سهول لمبارديا ، وما وجدوه في مختلف أنحاء البلاد التي عزوها من الرفاهية ورغد العيش ، فلما وجدوا في مصر الصحراء القاحلة والحر الشديد تبرمت نفوسهم ، وضعف فيهم احساس النضال العسكري والشعور بالواجب ، وتراخى الضباط في كبح جماح جنودهم ، فأنطلق هؤلاء يعتدون وينهبون ويخربون وتعرضت البلاد لموجة عنيفة من الارهاب والتعدي والتخريب والنهب مما أثار غضبة الاهالى وأشعل في نفوسهم الرغبة في الانتقام ، ووصف الجنرال « بليار » في يومياته تصرف الجنود الفرنسية فقال : « ان روح التدمير سائدة في الجيش ، والضباط لعدم اكتراثهم بالواجب تركوا الجنود يجوبون القرى ينهبون كل ما تصل اليه أيديهم » وجاء في يوميات الجنرال « لوجيه » : « وصلنا يوم ١٤ من يوليو الى قرية النخيلة في حين كان جنود الجنرالين « بون » و « فيان » ينهبونها ، وكان صياح الاهالى وبكاء النساء ونحيبهم يسم الآذان ولاقى الجنرال « دوجا » صعوبات كبيرة في القيام بمهمته ، لان الضباط كانوا يتدمرون من قلة الزاد ، وكانوا لا يقاومون تمرد الجنود ، وجاء في يوميات الكابتن « سافاي » ، « صادرننا بعض المواشي التي وجدناها في طريقنا ، وبينما كانوا يقيدوننا كان الجنود ينهبون هذه القرية (الطرائة) ويخربونها وان فرقتنا لم تكن تعمل سوى اتمام خراب القرى التي كان يمر بها الجيش » ، وكتب الجنرال « بليار » يقول : « لم يأسف الجنود لانهم لما لم يجدوا أحدا في البيوت وضعوا أيديهم على ما وصلت اليه من المتاع وأخذوا منها ما راق لهم أن يأخذوه » .

هذه الاقوال لهؤلاء الضباط الفرنسيين دليل واضح لا يحتاج الى برهان على ما قام به الفرنسيون من تخريب وتدمير ونهب وسلب ، وكيف يرضى المصريون اذن وقد وقعت هذه الأمور في بلدهم وفي ممتلكاتهم

وفى أرزاقهم ؟ ، كيف يقبلون السكوت واتخاذ موقف سلبي تجاه هذه الحوادث المثيرة ، وتجاه هذا الخراب الشامل لجميع نواحي حياتهم والمصريون قوم عاشوا حياتهم أعزة كرماء لا يخافون ضيما ولا يذلهم ظالم ولا يخضعون لجبروت ، ومن أجل هذا ثار المصريون ، وأقلقوا مضاجع الفرنسيين ، وأنزلوا بهم من الخسائر ما فاق خسائرهم فى الميدان .

٣ - ونقطة ثالثة لابد لنا عندها من وقفة . فالفرنسيون حين استقر لهم الامر فى البلاد أصدروا أوامر الى المصريين بحمل الشارة الفرنسية ، فقد طلب نابليون أعضاء الديوان الى داره ذات يوم (الاول من سبتمبر سنة ١٧٩٨) فلما استقر بهم المقام أراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الالوان الثلاثة ، ووضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان تكريما له وتعظيما فرمى به الى الارض محنقا وغاضبا واستغفى من الديوان وحاول نابليون أن يقنع الأعضاء بلبسه فرفضوا ٠٠٠ وأصدر نابليون أوامره فى هذا اليوم أن يحمل سكان مصر الشارة وأن تزق الراية الفرنسية على السفن فأبى المصريون جميعا قبول هذا الامر ورفضوا تنفيذه ، فكيف لمصرى يعتز بقوميته وبوطنه أن يقبل وضعها كهذا ويظهر للفرنسيين بهذه الصورة المهينة له ولكرامته وكرامة وطنه لقد أبى المصريون هذا ورفضوه فى شدة مما أثار الفرنسيين ، فبدءوا يتصرفون فى صورة ماسة بطبيعة المصريين مما جعلهم يثورون ضدهم محافظة منهم على طبيعتهم التى تعتمد أول ما تعتمد على كرامة المصرى وشرفه وحرية .

٤ - ثم كان بعد ذلك موقف الفرنسيين من حاكم الاسكندرية محمد كريم ، فقد ارتابت القيادة الفرنسية فى نياته واتهمته بخيانة الفرنسيين وردت اليه كل أسباب الهياج والعصيان فى نفوس الاهالى وجعلت منه البراس المدير لكل عمل يتسم بالمقاومة ، فألقت القبض عليه ووضعت فوق احدى السفن ، ثم نقل الى رشيد ومنها بعث به الى القاهرة حيث سجن ، وتولى الجنرال « ديبوى » التحقيق معه وأثبت عليه الاتهام وصدر أمر نابليون فى ٥ من ديسمبر ١٧٩٨ باعدامه رميا بالرصاص ومصادرة أملاكه وأمواله ، وسمح له أن يفتدى نفسه بدفع غرامه تصل الى ٣٠ ألف ريال فى ٢٤ ساعة فرفض محمد كريم أن يدفع المبلغ ، وحاول بعض الفرنسيين اقناعه بدفع الغرامة ، ومن هؤلاء « فانتور » الذى قال له « انك رجل غنى فما يضريك أن تفتدى نفسك » فأجابه محمد كريم « اذا كان مقدورا على أن أموت فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، واذا كان مقدرا لى الحياة فعلاام أدفعه » ونفذ فيه حكم الاعدام فى ٦ من سبتمبر ١٧٩٨ .

ولا شك فى أن موته أثار غضب المصريين ، فقد كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى زعيم وطنى وعالم دينى ورجل قل أن يجود به الزمن ، وصور « تيبودو » فى كتابه تاريخ نابليون أثر اعدام محمد كريم بقوله « ان اعدام هذا الشريف هو اول عمل من التصرفات المتعددة التى وجهت فيها التهم الى نابليون فى أثناء حملة مصر ، فان النفوس الحساسة قد تأثرت للخاتمة المحزنة التى انتهت بها حياة ذلك الشريف النزيه الذى أعدم بأمر القائد العام » .

هكذا تهيأت النفوس للثورة ضد الفرنسيين ، وهكذا استعد المصريون جميعهم رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا وشباناً وتجمعوا جميعاً حول فكرة واحدة آمنوا بها إيماناً عميقاً وهي تخليص مصر بلدهم العزيز من ظلم الفرنسيين واحتلالهم .

هبت البلاد كلها تقاوم الحملة الفرنسية وتقاوم أطماع نابليون وتقف في وجه الطغاة الظالمين وتصد عن نفسها مظالمهم وجبروتهم محاولة أن تبتعد بنفسها عن وحشيتهم ، وأن تنقذ نفسها من اعتداءاتهم الآثمة .

وظل النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية مستمرا منذ اللحظات الأولى التى وطئت فيها أقدام الفرنسيين أرض الوطن ، مما عجل بانتهاء الحملة وطرد الفرنسيين .

ولم يكن النضال الشعبى مقصورا على فئة معينة ، وإنما اجتمعت فيه كل القوى الوطنية من الفلاحين الى العمال الى الصناع الى التجار الى العلماء ، واندفعوا جميعا فى طريق الزحف الثورى يستهدفون أمرا من اثنين . . . القضاء على الفرنسيين وتخليص البلاد منهم أو الذود عن البلاد بالمهج والارواح .

واشتعلت الثورة فى كل مكان فى الوجه البحرى ، وفى القاهرة وفى الوجه القبلى ، وعاش الفرنسيون فى أزمت متلاحقة متتابعة وقد أذهلتهم الروح الوطنية المتوثبة التى فارت ضدهم كالطوفان ، ولم يقتنع المصريون بخروج نابليون ، ولم يهدؤوا حين غادر الاراضى المصرية وإنما ظلوا فى دفعهم الثورى ونضالهم الشعبى فى عهد خليفته ، كليبر الذى دفع حياته ثمنا لصموده أمام التيار الوطنى ، ومينو الذى انتهى فى عهده أمر الحملة الفرنسية .

الباب الثالث
الكفاح الشعبي في الوجه البحري

النضال الشعبى فى الوجه البحرى

كان من الطبيعى أن يبدأ النضال الشعبى فى الوجه البحرى ، فهو أول جزء من الاراضى المصرية تهبط فيه قوى الفرنسيين ، ولهذا كان أسبق المناطق المصرية الى مناوشة الفرنسيين ، ومقاومتهم ..

١ - أوفد نابليون الجنرال « دوجا » لاحتلال رشيد ، فتقدم واحتل أبو قير ثم رشيد ، وكان عليه بعد ذلك أن يتجه عن طريق النيل الى الرحمانية ، وترك فى رشيد حامية بقيادة أحد الضباط ويدعى « سان فوست » حتى يصل الجنرال « مينو » الذى عين حاكما لرشيد ، فاجتمع أهالى المدينة وقرروا فيما بينهم اقامة حكومة أهلية ، واختاروا لها ثلاثة من خيارهم وجعلوهم فى مقام الحكام ، فلما وصل مينو الى رشيد لم يستطع أن يتفاهم مع الاهالى فطلب امداده بقوة من الجنود ، وذكر فى طلبه أن العرب يزعمونه على الدوام ، وأن الاهالى لا يخلدون الى الطاعة ، وأنهم دائما ثائرون .

وواجه مينو مصاعب كثيرة حتى أنه حين بعث برسالة الى نابليون مع الكولونيل « داماس » هاجمه أهالى « مطوبس » و « أدفينا » وأطلقوا على سفينته الرصاص فعاد دون أن يتم مهمته ، وحدث أيضا أن أرسل الجنرال مينو بعض جنوده الى نابليون يحملون اليه البريد فخرج اليهم اهل السالمية وهاجموهم وقتلوا منهم ثمانية .

وحاول مينو فى ١٢ من سبتمبر أن يقوم بجولة فى شمال الدلتا واصطحب معه الجنرال « مارمون » وبعض علماء الحملة وكتيبة من الجند تبلغ ٢٠٠ من الجنود ، وعند قرية « شباس عمير » خرج الاهالى يقاومون القوة وأطلقوا عليها الرصاص ، وقتل الفنان « جولى » ، وتراجعت الكتيبة ثم عادت من جديد الى القرية ، وكان الاهالى قد احتلوا سورها وأبراجها الحصينة ، وظلوا يطلقون النار ، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين ، وأدرك مينو خطورة الموقف وخاصة أن رصاصة أصابت جواده ، فأمر جنده باضرام النار فى القرية ، وجاء أهالى القرية المجاورة ينجدوا اخوانهم ، حتى بلغت الجموع ثلاثة آلاف من الفلاحين ، وتحت الضغط العنيف عاد مينو بكتيبته الى المدينة ثم الى دسوق ثم الى رشيد بعد أن فقد عددا كبيرا من رجاله .

٢ - فى ١٧ من يوليو ١٧٩٨ علم المصريون من أهالى البحيرة أن كتيبة فرنسية يقودها الجنرال « ديبوى » قد كلفت الطواف فى المديرية قادمة من الاسكندرية قاصدة دمنهور ثم رشيد ثم أبو قير ، ثم الاسكندرية

للاطمئنان على سلامة مواصلات الجيش الفرنسى ولصيانة المواقع المهمة للجيش ، فهرب الاهالى الجمال حتى لا يستعين بها الفرنسيون وامتنعوا عن تزويد القوات الفرنسية بالماء والزاد ، واستعدوا لمهاجمتها ، فاجتمع لهذا الغرض عدد كبير من رجال البحيرة ، وتربصوا بالفرقة ثم هاجموها فى مواقع مختلفة ، وأطلقوا عليها الرصاص ، وشتتوا جموعها ، وأنزلوا بها خسائر فادحة ، ولقيت الكتيبة عنتا ومشقة اذ قابلتها الاهالى بكل ما استطاعوه من الوان المقاومة .

وفى دمنهور ووجهت الكتيبة ستة آلاف مصرى معدين للقتال غصت بهم الطرق والشوارع ، وتغطت بهم أسطح المنازل مما أجبر قائد الكتيبة على الانسحاب الى بركة « غطاس » حيث تعرضوا لهجوم آخر فى رشيد ، مما دعا الى انسحابها الى الاسندرية مضعضة منهوكة القوى ، والمصريون من خلفها يطاردونها وينزلون بها الخسائر الفادحة .

٣ - تحرك الجنرال « لكليك » فى ٢ من أغسطس ١٧٩٨ من القاهرة متجها الى بلبيس ، فاحتل القبة ، والمطرية ، والمرج ، والخانكة ؛ وأبوزعبل حيث تصدت له قوة من المصريين المسلحين بالبنادق والعصى ، واستطاعت هذه القوة أن توقف تقدم الكتيبة ، ثم تجبرها على الانسحاب الى الخانكة ، ثم بعد ذلك أخذت تطاردها وتتعبها وهاجم الاهالى المخافر الامامية لمعسكر الخانكة وكان هجومهم عنيفا ، اذ انضم اليهم عدد من فرسان العرب وحشد كبير من الفلاحين الذين كانوا يحملون أسلحة خفيفة ، وأحاط الاهالى بالفرنسيين ، وأطلقوا عليهم النيران ، فأدرك الجنرال « لكليك » الخطر ، وخاصة أن أهالى قرية الخانكة - حيث يدور القتال - قد تجمعوا هم الآخرون وخرجوا يشدون من أزر اخوانهم المصريين فاستقر رأى « لكليك » على اخلاء الخانكة ، وارتد فعلا الى المطرية ، ثم اخلاها الى المرج .

ثم جاء نابليون ومعه فرقة الجنرال «دوجا» والجنرال «لان» والجنرال «رينيه» وتقدم الى بلبيس ، فلما أحس الاهالى بعظم القوة المتحركة هجروا قراهم ، وعندما دارت معركة الصالحية بين نابليون والمماليك وقف المصريون بجانب المماليك يشدون من أزرهم حتى هزم المماليك وغادروا البلاد .

٤ - عين الجنرال رينيه قومندانا لمديرية الشرقية واتخذ مسجدا الصالحية مركزا عسكريا له ، وحاول أن يتفاهم مع أهالى المنطقة ، ولكنهم لم يأمنوا جانبه ، وأخذوا يمنعونه عن المواشى ، ويحملون السلاح فى وجهه واضطربت الاحوال فى الشرقية ، وظل الاهالى يناوشون الحاميات الفرنسية ، ويهددون مواصلاتهم مع القاهرة وبدأ الثوار يهاجمون المواقع الفرنسية ، وقتلوا ترجمان الجنرال ، واستغل الاهالى فرصة الفيضان وتعطل الفرنسيين عن الحركة ، وازدادوا عنفا فى مهاجمتهم للفرنسيين ، حتى أن جموعا كبيرة هاجمت معسكر بلبيس فى ٢١ من أكتوبر ، واستطاع الجنرال «رينيه» رد هجوم المصريين ، ولكنه اضطر الى التراجع الى داخل المدينة واستمرت هجمات الاهالى تقلق بال الجنرال ، وأصبحت

مواصلاته مهددة فلجأ الى نابليون يطلب منه العون فأمدته بقوات أخرى استطاعت الى حد ما أن تعيد الأمن والهدوء الى ربوع الشرقية .

٥ - كان نابليون قد أسند مهمة صيانة الأمن في القرية الى الجنرال « فوجير » ، وعندما تحرك الجنرال قاصداً القرية اصطدم بقوات الأهالي التي تجمعت عند « غمرين » ، و « تتنا » وقد حملوا السلاح وواجهوا الفرنسيين ، وحاول الجنرال بوسائل متعددة أن يفتح الطريق أمام قواته ولكن أعجزته قوة المقاومة المصرية ، فاستغاث بزميله الجنرال « زاينشت » مدير المنوفية الذي كان يربط بالقرب من منوف ، وتعاونت القوات معا ضد الأهالي في « غمرين » واستمر القتال عنيفاً حتى تغلبت القوة الفرنسية ، فعاد الأهالي القتال في « تتنا » وتغلبت قوة الفرنسيين ، ولكن بعد أن نفدت ذخيرتهم وأصيبوا بخسائر فادحة وبلغ بهم الحمق والغضب درجة بعيدة عن الإنسانية ، فأشعلوا النار في القريتين ووصف الكابتن « فيروس » القتال الذي دار في القريتين وأهم ما جاء في وصفه « أن عدداً من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام » وهذه شهادة لها أهميتها في تاريخ نضالنا الشعبي لأنها تقر بأن نضالنا لم يكن مقصوراً على الرجال وإنما أحست النساء بمسئوليتهم تجاه وطنهن فخرجن يشاركن الرجال في الكفاح والنضال ، شأنهن في ذلك شأن أعظم الأبطال .

٦ - في أوائل أكتوبر ١٧٩٨ ظهرت بوادر الثورة في طنطا إذ قرر أهلها الامتناع عن دفع الضرائب والغرامات التي تفرض عليهم ، فأرسل نابليون الكولونيل « لوفيفر » الذي ألقى القبض على أربعة من أئمة السيد البدوي ، ووضعهم في مركب يتجه بهم الى القاهرة ، وكان من سوء حظ الفرنسيين أن الأهالي في طنطا كانوا يحتفلون بمولد السيد البدوي ، فلما أحسوا بما أقدم عليه الكولونيل الفرنسي هرعوا بالبنادق والحراش رافعين الرايات والبنادق الى حيث يوجد الكولونيل ، وانضمت اليهم جموع كبيرة من أهالي البلاد المجاورة مما اضطر الكولونيل الى التزام خطة الدفاع ، وبعد معركة استمرت أربع ساعات استطاع الكولونيل أن يسحب معظم قواته بالسفن التي أقلعت وتركت المنطقة ، وكاد الجنرال « فوجير » أن يوقع نابليون في خطأ كبير حين بعث اليه يطلب معاقبة أهالي طنطا ، فطنطا لها مكانتها الدينية لوجود ضريح السيد أحمد البدوي بها ، وكان الفرنسيون ينظرون اليها كمدينة مقدسة عند المصريين ، ولهذا رفض نابليون ما عرضه عليه الجنرال قائلاً « انني راغب في احترام هذه المدينة ، وأعتبر تخريب هذا المكان المقدس كارثة كبرى في نظر الشرق » .

٧ - كان في قرية « عسما » رجل مشهور يسمى « أبو شعير » وكان يعتبر من أعيان المنطقة ، وأعلن هذا الرجل عداؤه للفرنسيين ، وأخذ يجمع الأهالي ليقاتل بهم الجنود الفرنسية ، فسارت اليه حملة على رأسها الجنرال « لانوس » في ٢٠ من أكتوبر ١٧٩٨ وحاول الجنرال أن يتفاهم معه الا أن « أباشعير » جمع رجاله وحصن القرية وأمد الفلاحين بالسلاح ، وانتظر قدوم لانوس وعند وصوله فتحت عليه النيران ، وبذل أبو شعير ورجاله جهداً كبيراً في مقاومة الفرنسيين ، واستطاع هؤلاء أخيراً استناداً الى كثرة

عددهم ، ووفرة سلاحهم ، أن يقضوا على قوة أبي شعير وأن يقتلوه وأن يقبضوا على اثنين من اخوته وبعض من أولاده وحاشيته ثم قتلوه .

٨ - ظن الجنرال « فيال » قائد مديرتى المنصورة ودمياط أن الامر قد استتب له بدخوله مدينة المنصورة ، ولكن أهالى المنصورة لم يكونوا أقل وطنية من أهالى مناطق الوجه البحرى ، فعندما استقر جنوده فى معسكرهم تجمع كثير من أهالى المدينة وكثير من أهالى البلاد المجاورة واتفقوا فيما بينهم على الفتك بجنود الحامية .

وفى ١٠ من أغسطس ١٧٩٨ قامت المدينة كلها رجالا ونساء دفعة واحدة ضد الفرنسيين وحاصروا معسكرهم وبدءوا فى مهاجمته ، وأشعلوا فيه النيران ، فتركه الجنود وولوا هاربين واتجهوا الى السفن فى النيل يبعثون الفرار ، وحالت الجموع الوطنية بينهم وبين ركوب النيل ، فعادوا الى البر ، وسلكوا الطريق الى دمياط ، الا أن الثوار قطعوا عليهم الطريق ، وقتلوه عن آخرهم الا ثلاثة جرح واحد منهم ، وأسر اثنان .

وأسر الاهالى أيضا امرأة أحد الضباط وتدعى « مرجريت » وابنتها وتسمى « جوليا » ، وهنا تظهر الاخلاق المصرية الجيدة ، اذ حافظ الثوار وهم فى غضبتهم وثورتهم على المرأة وابنتها ، وتزوج شيخ العرب « أبو قورة » الفتاة وعاشت فى كنفه حتى مات عنها وظلت هى حافظة لعهد بعد وفاته .

واشتعلت نيران الثورة فى البلاد المجاورة واتسع مداها واستفحل أمرها ، وأسرع نابليون فأرسل الى المدينة الجنرال دوجا (١٧ ، ١٨ من أغسطس) ، واستطاع أن يعيد الامن الى نصابه ، ولكن بعد عناء كبير فقد قوبل بمقاومة عنيفة ، وامتنع كثير من الاهالى عن دفع الضرائب ، ويقول - ريبو - ان محصلى الاموال الاميرية كانوا اذا ذهبوا الى القرى لجباية الضرائب ، أو لمصادرة أموال المالك يقابلون بالرصاص رميا ، أو بالعصى ضربا .

ووصل الى علم الجنرال دوجا أن بلدة سنباط كانت ذات باع طويل فى ثورة المنصورة ، فقرر أن يهاجم هذه البلدة ، وأن يقوم بحرقها تنفيذا لأوامر نابليون ، وفى طريقه الى سنباط التقى بقوة من العرب ، فأوقعوا بقوة خسائر فادحة .

وفى هذه الاثناء تجددت الاضطرابات فى منطقة « دنديط » ، وميت غمر ، وميت الفرماوى وأصبحت المواصلات النيلية فى فرع دمياط مهددة ، وأمر نابليون الجنرال « مورا » والجنرال « لانوس » بالتعاون لاختماد هذه الاضطرابات ، والتقى القائدان فى ميت غمر وتقدما لمهاجمة الثوار الذين قطعوا جسور الترع فغمرت المياه الاراضى ، وبوغت القوة الفرنسية بالمستنقعات التى عاقت تقدمها ، وانسحب الثوار فى هذه الاثناء الى ميت الفرماوى حيث قاوموا الفرنسيين مقاومة عنيفة ثم اعتصموا بالتلال الغربية ، ثم انسحبوا الى الهسواير ، وكان الفرنسيون قد نالهم الكثير من الاعياء فعجزوا عن متابعتهم ، وعادوا الى ميت غمر ، ووصف

« ريبو » الاضطرابات التي قامت في المنطقة بقوله (كانت الثورة كحبة ذات مائة رأس كلما أحمدها السيف والنار في ناحية ظهرت من ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنما كانت تعظم ويتسع مداها ، كلما ارتحلت من بلد الى آخر » ، وقال في موضع آخر « قد فوجئت مضرباً بالحملة الفرنسية فأخذت تنتفض وتتجاذب لتتخلص من قبضة الفاتح الحديدية وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه فقد قامت سلطتنا على القوة لا على الاقناع وكانت سياستنا قائمة على اكراه الشعب على الاذعان بالحزم مرة وبالقوة مرة أخرى » .

٩ - كان اقليم المنزلة يخضع لزعامة رجل من المصريين يسمى « حسن طوبار » ، وحسن طوبار كان من وجهة نظر الفرنسيين زعيماً للمحرضين على الثورة ، وخصماً عنيداً لا يستهان به ، ومديراً لحركات المقاومة ، فبعثوا اليه بالجنرال داماس لاختضاع منطقة بحيرة المنزلة التي بدأت فيها الاضطرابات ، وقد وصف « ريبو » سكان المنطقة بقوله « قوم أشداء ذوو نخوة ولهم جلد وصبر ، وهم أشد بأساً وقوة من سائر المصريين ثم هم أغنياء بما ينالون من الصيد ، ولهم في البحيرة خمسمائة مركب أو ستمائة ، تجعل لهم السيادة في البحيرة وللهؤلاء أربعون رئيساً ، وكل هؤلاء الرؤساء يتبعون حسن طوبار وهو الزعيم الأكبر لهذه المنطقة » ، وقال الجنرال « أندروسي » ، « حسن طوبار من أكبر أغنياء القطر المصري وله سلطة واسعة تقوم على مكانته في النفوذ وثروته وعصبيته من ذوي قرياه وأتباعه » .

وصدرت الأوامر للجنرالين « داماس » و« دستنج » بأسر حسن طوبار وتحطيم أسطوله ، ولما علم الاهالي بتحريك القوة الفرنسية ١٦ من سبتمبر ١٧٩٨ أخلوا قرية منية محلة دمنة وكذلك قرية القباب الكبرى ، وعاد الجنرال دستنج الى المنصورة ، واستمر الجنرال داماس متقدماً الى المنزلة ليتم المهمة المكلف بها ومعه ثلاثمائة جندي بأسلحتهم وذخيرتهم ، وأمدّه الجنرال دوجا بعدد آخر من الجند وهو في قرية « المرساة » ، وتابع تقدمه الى ميت السودان والدراكسة وبرنبال الجديدة وعندما أصبح تجسّام الجمالية تعطلت سفنه في بحر أشمون لقلة المياه به ، وكان هذا التعطل فرصة ألقتها المقادير أمام الاهالي الوطنيين ، فاستغلوها وهاجموا السفن الفرنسية وأطلقوا النار عليها ، كما أمطروها بوابل من الحجارة ، واستمر القتال أربع ساعات ، وأحس الجنرال داماس بصعوبة الموقف وخطورته فأضرم النار في قرية الجمالية ، وعاد الى المنصورة ، ووصف أحد ضباط الكتيبة ويسمى « جازلاس » المعركة بقوله « لما وصلنا بحراً تجاه الجمالية وهي قرية كبيرة على الشاطئ الغربي من بحر أشمون ، فوجئت السفن التي كانت تقل الجنود بعاصفة من الاحجار والرصاص انهارت من أسوار البلدة وبيوتها ، وفي الوقت نفسه رأينا جموعاً كثيرة من العرب والمماليك والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصى تهرع من الجهات المجاورة الى مهاجمتنا ، وكان بعضهم ممتطياً الخيل ، وأكثرهم مشاة ، فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة ونزلت الجنود حاملة سلاحها الى البر الشرقي المقابل للقرية وتأهبوا للقتال منتظرين قدوم الاهالي ، فرأينا أكثرهم شجاعة

يغامرون بأنفسهم ويهجمون الى أن يصبحوا في وسط جنودنا وقد رأيت
بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصي يهاجموننا
بحماسة ... » .

وبانتهاء هذه الحملة بدأت المفاوضات بين القادة الفرنسيين وبين
حسن طوبار ، فقد أحسوا به قويا ، يثير البلاد ضدهم ويشعل الناس
حماسة للمقاومة ، واتصل به الجنرال « فيال » فى دمياط وطلب منه أن
يحضر اليه ليتسلم بعض الهدايا باسم نابليون ، فرفض حسن طوبار
وأعلن استيائه لحرق الجمالية ، اذ كان يعتبرها ضمن حدود حمايته وبدأ
يستعد لخوض معركة حاسمة ضد الفرنسيين ، فبعث بأولاده وأمواله الى
« غزة » وأخذ يحشد كل ما يستطيع من السفن فى بحيرة المنزلة ، وعلم
الفرنسيون أن هناك شبه اتفاق بينه وبين الاتراك للمساهمة معا فى حملة
بحرية ضد الفرنسيين ، وذكر الجنرال « لوجيه » ، « لقد تحققنا أن
حسن طوبار كان يجوب بنفسه البلاد والطرق على بحر أشمون يحرض
الاهالى على الثورة ، وكان يرسل رسله وأتباعه لينظموا المقاومة ضد
الفرنسيين ، وكان فى استطاعة هذا الرجل أن يحشد علينا قوات كبيرة » .

وفى أوائل سبتمبر أحس الفرنسيون بنذر الهجوم فطلب الجنرال
« فيال » امدادات سريعة يستطيع بها مواجهة الموقف ، وفى ليلة ١٦ من
سبتمبر وقع الهجوم المنتظر الذى اشترك فيه أهالى منطقة دمياط بأجمعها ،
كما اشترك فيه أسطول حسن طوبار ، وتحركت القوة المهاجمة من الوطنيين
الى دمياط لمهاجمة الفرنسيين ، واستمر القتال ليلة متصلة ، واستطاع
الجنرال فيال أن يصد المهاجمين ويردهم على أعقابهم ، فاتجه بعضهم الى
قرية الشعراء ، حيث تحصنوا بها واتخذوها معسكرا لهم ، ووصلهم مدد
عن طريق بحيرة المنزلة وتقدم الجنرال « فيال » بعد أن وصلته قوة جديدة
بقيادة الجنرال « أندريوس » للاستيلاء على الشعراء ، واستطاع أن يستولى
عليها وعلى بعض السفن ، وأضرم فيها النيران الا أن هذه النيران المشتعلة
لم تؤثر فى نفسية المقاتلين وفى سير الثورة ، فقد تفاقت وامتدت فى
البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط ، وتعرضت السفن الفرنسية لهجمات
مستمرة قتل فى أثنائها عدد من الجنود والبحارة ، مما حدا بالجنرال
« فيال » الى مهاجمة بعض القرى للقضاء على الاهالى الذين يقومون بالغارات
على السفن ، ولكنه وجد غالبية القرى خالية من السكان كما حدث فى
الظاهرية وكفر المياسرة والزرقا ، وميت الخولى ، والاحمدية ، وشرمساح ،
وكفر الزعاترة ، وبعد هذه الجولة الطويلة ، عاد فيال الى دمياط فى ليلة
١٤ من أكتوبر .

ولم يقبل نابليون أن يظل حسن طوبار على ما هو عليه من النفوذ
والقوة ، فقرر ضرورة اخضاعه وكسر شوكته وأرسل مددا الى الجنرال
دوجا والى الجنرال أندريوس وطلب منهما الاستيلاء على المنزلة والقبض
على حسن طوبار ولو بالخديعة وارساله اليه فى القاهرة ، ووضع القائدان
خطة للاستيلاء على المنزلة ، فيسير الجنرال داماس بطريق البر من المنصورة
والجنرال اندريوس بطريق البحر من دمياط ، وتلتقى القوتان فى المدينة .

وتقسّم الجنرال أندريوس الى المطرية حيث فوجيء بأسطول من المراكب الشراعية تسعى الى الاصطدام بأسطوله فعاد الى دمياط ، وتعقبته المراكب المصرية ورسّت بالقرب من « المنية » ، وطالت المناوشات ، وعاد مراكب الاهالى بعد أن تركت احداها لمراقبة الفرنسيين .

أما الجنرال داماس فقد استطاع أن يدخل المنزل في ٦ من أكتوبر بعد أن أخلاها الاهالى ومعهم حسن طوبار كما احتل المطرية .

أما حسن طوبار فقد هاجر من البلاد المصرية الى غزة وظل بها الى أن عاد اليها بعد انتهاء الحملة الفرنسية على سورية ومات عام ١٨٠٠ ، وقد أشاد الفرنسيون به ، ويسميه أهل المنطقة « حسن طوبار الكبير الذى حارب الفرنسيين » .

١٠ - سادت البلاد فترة من الهدوء . . كان نابليون خلالها يقوم بحملته المعروفة على سورية ، الا أن هذا الهدوء كان وقتيا ، ولعل الاهالى قد أثقلهم التدمير ، والتخريب اللذان حاقا ببلادهم فأرادوا أن يمنحوا أنفسهم فرصة ينظمون فيها صفوفهم ، ويستعدون من جديد لكفاحهم ضد عدوهم ، لأن النفوس كانت ختى فى فترة الهدوء متحفزة لثورة جديدة .

وفى مارس ١٧٩٩ ، بدأت الثورة تشتعل فى نفوس الاهالى من جديد ، على أثر السياسة التعسفية التى اتبعها الفرنسيون فى البلاد ، فقد فرضوا الاتاوات ، وصادروا الجمال والحمر والماشية ، ونشروا الظلم مما أدى الى وقوع مصادمات كثيرة فى نواح مختلفة وخاصة فى الشرقية وكانت أشد هذه المصادمات ما وقع فى « بردين » اذ خرجت كتيبة من الجنود من بلبيس لمصادرة الجمال والحمر ، ولكن أهالى « بردين » حملوا السلاح واستعدوا لمقاومتها وأحس قائدها بخطورة التجمع الشعبى ، فعاد أدراجه ثم نظم قواته ، وزودها بالجنود والسلاح ، ورجع الى بردين فى أول مارس ، حيث كان الاهالى على ما هم عليه من الاستعداد ، وما كادت القوة تقترب من القرية حتى انهال عليهم الرصاص ، وبدأت معركة عنيفة استمرت ساعتين هزم خلالها الفرنسيون ، فولوا الادبار ، وتعقبهم الاهالى حتى بلبيس .

١١ - استمرت الاضطرابات فى الشرقية حتى كانت ثورة « أمير الحج » مصطفى بك الذى كان نابليون قد عينه أميرا للحج وقربه اليه ، وطلب منه أن يصحبه فى حملته الى سورية فتخلف عنه فى الطريق ، واندفع يدعو الى الثورة ومعهم الشيخ « سليمان الفيومى » ، واستجاب لدعوته كثيرون من أهالى الشرقية ، وانتقلت الدعوة الثورية الى الدقهلية واستطاع أهالى ميت غمر أن يستولوا على عدد من السفن الفرنسية التى كانت تحمل الذخائر والاقوات وبعض المدافع الى الفرنسيين وامتدت الثورة الى كل مكان فى الدلتا ، وأدرك الجنرال دوجا خطورة الحالة ، وحاول الفرنسيون تجريد مصطفى بك من أجازة الحج ، واستعانوا فى ذلك بالديوان الذى استجاب لرغبة الفرنسيين فأصدروا قرارا بعزله من إمارة الحج ، وكلف الجنرال « لانوس » قومندان المنوفية السير الى الشرقية ،

وأخذ يطارد مصطفى بك ، واستطاع أن يشتت أنصاره ، واختفى مصطفى بك الذى قيل انه ذهب الى الشام .

وفى أواخر مايو تجددت الثورة فى القليوبية وفى ميت غمر ، وتعطلت الملاحة فى النيل ، واستطاع الجنرال لانوس ، احتلال ميت غمر ، ولكن الثوار اتجهوا الى كفور نجم فتعقبهم لانوس وقضى عليهم .

وهنا فوجئ الفرنسيون بانتقال الثورة الى البحيرة وأصبحت الاسكندرية ورشيد مسرحا للثورة ، وعاون الاهالى فى هذه المنطقة بعض سفن الاسطول الانجليزى الذى أخذ يضرب قلاع الاسكندرية ومواقع الفرنسيين من البحر .

وفى منطقة رشيد تجمع الاهالى ، فجدت حملة عسكرية مسلحة للقضاء على الثورة التى عمت برنبال ، مطوبس ، وشباس عمير ، والسعدة ، ونتيجة للامدادات الكثيرة التى زودت بها القوات الفرنسية استطاع الفرنسيون أن يقضوا على الثورة فى منطقة رشيد .

وشبت الثورة من جديد ، فى بلدة دونة ، اذ ظهر فيها رجل ادعى المهدي ، ودعا الى قتال الفرنسيين ، وانضمت اليه قبائل أولاد على والهنادى ، ووصلت الجموع الوطنية الى دمنهور فى ليلة ٢٤ ، ٢٥ من ابريل ، وهاجمت الفرنسيين المتجمعين تحت قيادة « مارتان » واستطاع الوطنيون القضاء على الحامية الفرنسية بأجمعها ، مما جعل الناس فى المناطق الاخرى يسرعون الى الانضمام الى الثوار حتى اذا ما التقى الثوار بقوة الضابط « ريدون » دخلوا معه فى معركة حامية استمرت خمس ساعات وانتهت بانسحاب الفرنسيين الى الاسكندرية .

ولم يسكت الفرنسيون على هذه الهزائم المتكررة فجمعوا قوات كبيرة ، دفعوا بها الى مكان الوطنيين حيث دارت معركة عنيفة فى دمنهور قرب دمنهور ، وقال ريبو أن رجال المقاومة كانوا خمسة عشر ألفا من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، ودارت معركة أشبه بمجزرة فظيعة ، وأظهر الفلاحون المصريون شجاعة فائقة واستخفافا بالموت ، وبذل الفرنسيون جهدا جبارا ، واستطاعوا بهذا الجهد أن ينسحبوا من المعركة بعد أن خسروا خسائر فادحة كبيرة ، ووصلوا الى دمنهور ، حيث كانت قوات فرنسية أخرى بقيادة الجنرال « لانوس » ، والجنرال « فوجير » قد سبقتهم الى هناك ، واستطاعت أن تحتل دمنهور ، وأن تقضى على قوة المهدي بها .

وأخيرا

فهذه هى الصور المتعددة لحركة المقاومة الشعبية لمراحل النضال الشعبى فى الوجه البحرى ضد الفرنسيين والمتتبع لهذه الصور يشعر بعمق الوطنية وشدة الايمان التى كان يتصف بها المصريون ، فهم كانوا يمثلون شعبا حيا أبى أن يخضع للقوة ، وأبى أن تستغل خيرات ، وأن تنتهك حرماته ، وأن يعيش رجاله عيشة الضيم والذل والمهانة ، فثاروا ثورة عارمة ، فقدوا فيها الكثير ، ولكنهم سجلوا لأنفسهم فى تاريخ الكفاح الشعبى صفحات ناصعة وتاريخا خالدا ، ومجدا تالدا .

البَابُ الرَّابِعُ
الكفاح الشعبي في الوجه القبلي

لم يكن للمماليك دور فى المقاومة :

لم يكن سكان الوجه القبلى بأقل وطنية من اخوانهم سكان الوجه البحرى ، ولهذا فعندما استقر الأمر لنابليون فى القاهرة بعد انتصاره فى معركة « الأهرام » ، ثار المصريون القاطنون فى الوجه القبلى - ضد الفرنسيين ، وقاموا بثورتهم فى ذات الوقت الذى قام فيه المصريون بثورتهم فى الوجه البحرى ، ولا عجب فى هذا ، فالمصرى فى الشمال أو فى الجنوب يحس احساسا عميقا بواجبه حيال وطنه ، ويدرك مسئوليته تجاه حريته وسيادته ، والمتتبع لحركة النضال فى الوجه القبلى يدرك فى سر ووضوح أن هذا النضال كان واقعا على عاتق المصريين وحدهم ، برغم أن المماليك كانوا قد استغلوا حركات النضال الشعبى ، وساهموا فى بعضها رغبة فى أن تستقر الأمور لهم ، ويعود حكم البلاد اليهم ، إلا أن المؤرخين أظهروا هذه الحقيقة ، وأكدوا أن دور المماليك فى مقاومة الحملة الفرنسية فى الصعيد كان دورا ثانويا ان لم يكن تافها ، فمراد بك بعد هزيمته فى معركة الأهرام فر الى الصعيد ، واستقر بها ليكون بعيدا عن هجمات نابليون ، لا ليواصل السعى لقهر الفرنسيين وطردهم ، وهو لم يفكر أبدا فى مقاومة الجيش الفرنسى مقاومة جدية ، ولهذا فان معظم ما لقيه الفرنسيون فى الصعيد انما نالهم من الاهالى الوطنيين .

وحوادث القتال فى الوجه القبلى تؤكد هذه الحقيقة ، فما من معركة تكون على وشك الوقوع الا ويتركها مراد بك ومماليكه ، ويفرون الى الجنوب ، فمثلا عندما وصل الجيش الفرنسى الى الفشن ، تراجع مراد بك قبل أن يدركه الجيش ، وظل الفرنسيون يتعقبونه ثلاثة أيام وهو ينتقل من قرية الى قرية ، وكذلك أيضا حين تقدمت القوات الفرنسية الى أسيوط فقد انسحب منها المماليك وعندما وصلت الى « دنقيق » ، « وطيبة » لم تلق مقاومة ، وعندما تتبع الجنرال « فريان » مراد بك الى أرمنت تركها وفر الى الجنوب ، وظل ينسحب أمام الجيش الفرنسى ، دون أن يلتقى معه فى معركة فاصلة ، وجاء أن الجنرال « بليار » (فى احدى الروايات) سار بجنوده بالبر الغربى للنيل يتعقب مراد بك ولكنه لم يدركه لان المماليك - كما جاء فى هذه الرواية - « كانوا أسرع منه فى السير » ، وقيل فى الحديث عن معركة اسنا (٢٥ من فبراير ١٧٩٩) أن قتالا دار بين الفريقين ، ولكن مراد بك تعجل نهاية المعركة فلم تدم غير ساعة من الزمن ثم تقهقر الى « أرمنت » .

ومن هذه الرسائل رسالة الجنرال « ديزيه » الى نابليون يقول فيها « اننا دائما محاطون بالاعداء ، وأن صعوبة المواصلات المهددة دائما بالانقطاع وبعد المسافات تمنعنى من أن أكتب اليك عن أخبارنا بمقدار

ما أرغب ، واننا فى حاجة الى الجنود ، لأن فرقتى قد أنهكها التعب . واجتاحتها الامراض ، وان من الخطر أن نترك جهة واحدة فى مصر العليا دون أن نحتلها بجنودنا ، واننا لم نستطع أن نشنت أعداءنا الا بمتابع وحملات شاقة لا هوادة فيها ، والبلاد مع ذلك مستعدة للثورة ، وانى مضطر الى ارهاق الجنود وجعلهم دائما على سفر ، .

مقاومة عنيفة واستبسال رائع ..

نخرج من هذا كله الى أن المقاومة فى الوجه القبلى كانت تقع على عاتق الوطنيين من أهل البلاد ، وكانت روح المقاومة تسود سكان القرى . فلم يكن الاهالى يتركون فرصة تمر دون أن يشعروا فى وجه السلطات الفرنسية ، ولقد ذكر مؤرخو الحملة الفرنسية أن المقاومة فى الوجه القبلى كانت أشد عنفا منها فى الوجه البحرى ، وكان الاهالى أعنف مقاومة وأكثر استبسالا ، وكانت المقاومة التى لقيها الجيش الفرنسى فى أنحاء الوجه القبلى أشد ما أصاب الفرنسيين لأن طبيعة البلاد فى الصعيد ، وبعد المسافات وصعوبة المواصلات وأخلاق السكان جعلت الجيش الفرنسى يقابل حركات ثورية ذات صبغة حربية منظمة وفى هذا الصدد يقول « دى لاجولكبير » ، « ان المقاومة التى لقيها الجنود الفرنسيون فى الوجه البحرى ، كانت فى الغالب ذات صبغة محلية ولكن فرقة الجنرال ديزيه (وهى التى وكل اليها اخضاع الصعيد) ، هى التى اضطرت أن تواجه حركات حربية حقيقية » .

وكتب الجنرال ديزيه فى فبراير ١٧٩٩ يقول وقد أحس بخطورة الاضطرابات فى الصعيد وبعنف حركة المقاومة وبخرج موقفه « اننا سير بلا انقطاع وقد ساءت حالة الجنود فى ملابسهم وأحذيتهم وان دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم » .

ووصلت الى القيادة العليا فى القاهرة رسائل كثيرة وتقارير تحدث فيها مختلف القادة عن الخسائر الجسيمة التى نالتهم والذخائر التى نفدت منهم ، وروح العداء التى سادت الاهالى فى تلك البلاد ، حتى أن الفرنسيين كانوا يشعرون دائما أنهم محاطون بالأعداء من كل جانب .

الواضح من القتال الذى دار فى الوجه القبلى أن المماليك كانوا لا يواجهون الجيش الفرنسى ، بل تركوا عبء القتال على عاتق الاهالى وحدهم ، فمراد بك ظل هو وجنده بعيدا عن ضربات ديزيه ، وأثبت تاريخ النضال الشعبى فى الوجه القبلى أن كثيرا من المماليك تركوا زعماءهم وأخذوا يبحثون لانفسهم عن ملجأ فى القرى والمدن ، وأن كثيرا منهم باع سلاحه بل عرض بعضهم نفسه على الفرنسيين ليضموه اليهم ، وقد ذكر « ريبو » أن أحد المماليك عثمان بك حسن طلب من ضباط الجيش الفرنسى أن يأخذوه معهم لأنه كان مجريا وأسره الاتراك فى بعض حروبهم مع النمسا وصار بعد ذلك مملوكا ، وانتظم هذا المملوك فعلا فى صفوف المقاتلين الفرنسيين وكذلك فعل كثيرون آخرون ويقول « ريبو » ان الفرنسيين قبلوهم فى صفوفهم وصاروا من رجالهم الامناء الشجعان .

والملاحظ أن المماليك كانوا دائما يتجنبون الصدام فكانوا ينسحبون من المعركة اذا اشتد لهيبها ، ويبتعدون عن ميدانها قدر استطاعتهم ، هكذا فعلوا في أبنوب وفي ثورة بنى عدى فانهم كانوا يضمنون بأرواحهم ويغادرون أرض المعركة ويعرضون الاهالى للقتل أو الاصابة ، وفي هذا يقول الجبروتى فى وصف موتى المماليك فى بنى عدى ، « ان مراد بك ومن معه ترفعوا أى ابتعدوا الى قبلى ووصلوا الى عقبة الهواء ، وكلما قرب منهم الفرنسيون انتقنوا وقبلوا ، ولقد داخلهم من الفرنسيين خوف شديد ولم يقع بينهم ملاقة ولا قتال » وقال عن مراد بك « انه يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط فى الاقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر فى حرب باشرها أبدا على ما فيه من الانحاء والغرور والكبر والخيلاء والضلف والظلم » .

وتاريخ الحملة الفرنسية على مصر يؤكد حقيقة لا سبيل الى انكارها ، ففي الوقت الذى ظل فيه المصريون يقاتلون الفرنسيين ويفاءونهم ويثيرون ضدهم ويثيرون المتاعب فى وجوههم أسرع مراد بك قد دخل فى مفاوضات الصلح مع كليبر فى ٥ من ابريل ١٨٠٠ وضع بها حدا للعداء المعروف بين المماليك والفرنسيين واعترف به الفرنسيون حاكما على الوجه القبلى يستمد وجوده وقوته من الحكومة الفرنسية ، ولم ينته الأمر بمراد بك عند هذا الحد فانه فى عهد مينو تلقى رسائل من ابراهيم بك ينبئه بقرب تحرك جيش انجليزى عثمانى الى مصر ليخلصها من الفرنسيين ، فبعث مراد بك بهذه الرسائل الى مينو مع عثمان بك البرديسى وطلب منه فى حالة المفاوضة مع تركيا أن يحافظ له على الامتيازات التى نالها ، وأعلن أنه سيضع كل قواته تحت تصرف القيادة الفرنسية اذا ما عاد القتال من جديد .

وخرج المصريون للقتال ضد الفرنسيين فى الصعيد ، وتميز القتال بعنفه وشدته كما قلنا ، وأدخل المصريون تعديلا جديدا فى خطة مقاومتهم ، اذ جعلوها بعد معركة « سيدمنت » مقاومات محلية تقوم أساسا على عنصر المفاجأة ، وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطرا على الجيش الفرنسى ، وقال « ريبو » لم يهدأ لفرنسيين بال ولم يستقر بهم قرار خلال الحملة على الصعيد ، بل كانوا هدفا للمفاجآت والمعارك غير المنتظرة ، وكان هذا النوع من الحرب أشد خطرا على الفرنسيين لانهم فقدوا الراحة والطمانينة ، واضطرتهم هذه المقاومة الى مداومة الحملات والرحلات المذهكة للقوى دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال .

المواطنون جميعا كتلة واحدة . . .

حمل السلاح ضد الفرنسيين فى الوجه القبلى جميع الوطنيين كما حدث فى الوجه البحرى ، ونعنى بذلك أن الرجال والنساء والاطفال خرجوا جميعا من ديارهم وحقولهم متعاونين كتلة واحدة وقلبا واحدا ، مما شكل خطرا جسيما أمام الفرنسيين ، وفى ذلك قال الجنرال « دافو » ، « اننا نستهدف لاختار كثيرة كلما أوغلنا فى بلاد يحمل جميع أهلها السلاح

«وما هو جدير بالذكر ان النساء والاطفال مع الرجال خاضوا غمار المعارك وأحسوا بدورهم في النضال فأبوا الا أن يسهموا بدورهم في هذه المهمة الوطنية الجليلة ، وفي ذلك قال الجنرال بليار يصف موقف النساء من حركة المقاومة الشعبية « رأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب ويحثون التراب في وجوهنا » .

وكتب الفرنسيين التي أرخت للحملة الفرنسية على مصر تشهد بذلك بل ان أكثرها قد ذكر بالفخر ما حدث في قرية النعناعي ففي هذه القرية عسكر الجيش الفرنسي في انتظار قدوم المدفعية ، وتقدم أحد غلمان القرية وتغلغل في داخل المعسكر ، واستولى على بعض البنادق وخرج مسرعا منه ، فلمحه أحد الجنود وتعبه ولما أدركه ضربه بالسيف على ذراعه ، وقبض عليه وساقه جريحا الى القائد ديزييه وأخذ الجنرال يستجوب الغلام ، وأذهلته حماسة الغلام وشجاعته ورباطة جأشه فقد كان يجيب عن أسئلته بثبات وقدر ، وتعجب الفرنسيون حين سأله عن حرضه فأجابهم ناظرا الى السماء « ان الله القادر على كل شيء قد أمرني بذلك ، لم يحرضني أحد ، وانما الهمني الله أن أفعل ما فعلت » ، ثم رفع رأسه ونظر الى القائد وقال في هدوء وثبات « دونك رأسى فاقطعوه » ، ودهش الجنرال من شجاعة الغلام الذي لم تكن سنه تتجاوز الثانية عشرة . وأمر بجلده ثلاثين جلدة ، ولما جلد لم يتأوه حتى أن الجنرال بليار وهو يقص حكايته قال « ان هذا الغلام اذا عني بتربيته كان ذا شخصية تادرة المثال » .

هذه القصة التي كان بطلها غلاما حديث السن تبرز اتجاهها وطنيا وتوضح مشاعر فياضة بحب الوطن والايمان بحريته وسيادته ، والصورة المشرفة التي ظهر بها الغلام ، لم تكن صورته وحده ، وانما كانت صورة ذات أصول كثيرة تمتلى بها جنبات الوادي شماليه وجنوبيه تنبى عن بطولة المصريين وجلدهم واخلاصهم ووطنيتهم .

الوطنيون والماليك

المعروف من حوادث الحملة الفرنسية بعد أن انتصر نابليون في معركة الأهرام ، وبعد أن استتب له الأمر ، أن مراد بك فر الى الوجه القبلي ، وكان نابليون يحسب لقوته حسابا كبيرا ، ولهذا عهد الى الجنرال ديزييه بتتبعه والقضاء عليه ، هذا فوق أن نابليون رأى في بقاء قوة معادية في الصعيد تهديدا لسلطته ، ومثارا للشغب والمقاومة .

وعندما بدأت قوات نابليون تتجه الى الوجه القبلي بدأ الاهالى الوطنيون يتجمعون ويتكتلون لصد قواته ومقاومتها ، وحدث في أثناء هذا التجمع والتكتل ان ارتبطت الى حد ما أعمال المقاومة الشعبية بأعمال المقاومة التي كان يتولاها مراد بك ، الا أن الاهالى الوطنيين ، وهم يتعاونون كما قلنا الى حد ما مع مراد بك ، لم يكن تعاونهم بقصد معاونة الماليك وانما كان استغلالا لأكبر قوة يمكن بها دفع قوات نابليون .

ان الاهالى كانوا يدركون تمام الادراك أن المماليك كانوا يضمنون بأنفسهم ويحرصون على أرواحهم فى ميدان الحرب والقتال ، وأنهم لا يريدون الا أن يتخذوا من الاهالى مطية لقضاء مصالحهم ، ولهذا أسقطوا الثقة بهم ، وكان فقدان الثقة من أهم الأسباب التى قضت على نفوذ المماليك وسلطتهم فى البلاد ، فلم تقم لهم قائمة بعد الحملة الفرنسية ومما يؤكد ما نذهب اليه أن عدد القتلى من المماليك فى معركة الفيوم لم يزد على أربعة قتلى وعشرة جرحى فى حين بلغ عدد القتلى من الاهالى مائتين ، ولهذا يقول الجنرال ديزييه « ان المماليك على جانب عظيم من الحذر والحرص ، فهم لا يستهدفون للقتل بل يعرضون غرهم للخطر » .

دور الطبيعة فى المقاومة . . .

ولقد ساهمت الطبيعة فى حركة المقاومة ، وأدت مياه النيل دورا كبيرا ، فحين تقل المياه فى النيل تشتد قوة المقاومة نتيجة لتوقف حركة السفن التى كان يعتمد عليها الفرنسيون اعتمادا كبيرا ، كما أنه فى فترة الفيضان كان تقدم الفرنسيين متعذرا واتصالهم بالقرى صعبا وحصولهم على المؤن والزاد ليس بالأمر الهين ، لأن مياه الفيضان كانت تغمر البلاد ، فتثير العقبات فى وجه الجيش المتقدم ، كما حدث فى مواقع متعددة نذكر منها على سبيل المثال عودة ديزييه وقواته الى اللاهون فى ١٦ من اكتوبر حين أراد التقدم الى مدينة الفيوم ، لأنه وجد أن مياه الفيضان تعطل مواصلات الجيش الفرنسى .

كما كانت الصحراء عاملا هاما أثقل كاهل الفرنسيين فى حين عاون الوطنيين معاونة فعالة ، اذ تكبد الفرنسيون متاعب شاقة كلما أوغلوا فى الصحراء التى تحيط بمناطق المقاومة ، وأضناهم السير فى الرمال وعلى التلال والآكام القائمة بتلك الجهات ، وكثيرا ما أمسك الفرنسيون عن متابعة قوات القوميين اذا ما اتجهت هذه القوات الى الصحراء ، ولم تكن هذه القوات تلجأ الى الصحراء خوفا من مقاومة الفرنسيين ، وانما لأن الارض أرضهم وهم فوقها يستطيعون أن يديروا المعركة لمصلحتهم ، أما الفرنسيون فلم تكن لهم دراية بحرب الصحراء ومن هنا كانوا يخشون الدخول فى معركة لا يعرفون نتائجها ، وصور ديزييه ذلك فى قوله « لو كانت الحملة التى أخوضها على ضفاف النيل لهان الأمر ، ولكنى أحارب فى الصحراء حيث لا توجد طرق للمواصلات ولا وسائل للنقل » .

وكانت الطبيعة بالمرصاد للقوات الفرنسية ، فقد كانت رداءة الطقس بالنسبة لهم والمتاعب الكثيرة التى واجهتهم من السير فى الرمال من أسباب انتشار مرض الرمد بينهم ، ولقد انتشر هذا المرض بصورة وبائية وفتك بهم فتكا ذريعا ، فقد أصيب ٨٠٠ جندي دفعة واحدة ، يستفحل حتى أصبح خطره على الفرنسيين يفوق خطر المعارك والحروب ولقد صور ديزييه فى رسالة له الى نابليون خطورة هذا المرض فقال « ان أمراض العيون هنا كارثة فظيعة حلت بالجيش ، فقد حرمتنى الانتفاء بالف وأربعمئة من رجالي ، واضطرت أن أسحب منهم وراء الجيش مائة فقدوا بصرهم تماما » .

المقاومة الشعبية :

قلنا ان نابليون عين الجنرال «ديزييه» قائدا للحملة الفرنسية التي كانت تؤلف من ٥ آلاف من المشاة والفرسان والمدفعية والمهندسين المزودين بأحدث الأسلحة والذخائر والمدافع والسفن وأقلعت الحملة في أواخر أغسطس في حماية بعض السفن المسلحة وسار جزء منها برا على شاطئ النيل حتى وصلت الى «إطفيح» وهناك انضمت اليها كتيبة الجنرال «رامبونند» ثم وصلت الى بني سويف ، ثم أبو جرج ، ثم البهنسة ثم المنيا ، وفي خلال هذه الفترة لم يحدث اصطدام بين قوات الفرنسيين وبين قوات المماليك لان قوات مراد بك كما سبق القول ، كانت تنسحب قبل خوض أية معركة ضد الفرنسيين ، أما النضال الشعبي ضد حملة نابليون في الصعيد فقد بدأ بموقعة كبيرة هي موقعة «سدمنت» ثم تلتها مواقع أخرى نتحدث عنها فيما يلي :

١ - كان اللقاء الاول بين قوات ديزييه وقوات الوطنيين من أهالي الفيوم في «سدمنت» وهي بلدة صغيرة تقع غرب بحر يوسف ، فقد تجمع الأهالي فرسانا ومشاة وتحصنوا في آكام سدمنت ، وقد أعدوا معدات الهجوم للقضاء على قوات ديزييه ، وكان عدد المقاتلين المصريين يجاوز ضعف الجيش الفرنسي ، وانضم اليهم بعض المماليك ، واتخذ المصريون مواقع حصينة في المرتفعات بحيث كانوا يسيطرون على أرض المعركة ، وفي ١٧ من اكتوبر ١٧٩٨ تحرك ديزييه بقواته لمهاجمة المصريين ، ولما اقترب من مواقعهم قام المصريون بهجوم عام ، وبدأت الفرسان تهجم (كان عددهم من ٤ آلاف إلى ٥ آلاف) بحماسة منقطعة النظر في حير كانت الطبول تدق دقات الحرب مما زاد في حماسهم ، واستطاع الأهالي أن يحيطوا بجيش ديزييه من كل ناحية ، الا أن المدفعية الفرنسية فتكت بهم وكسرت هجمتهم ، فلم يخافوا ولم يفت ذلك في مضدهم ، فأعادوا الهجوم مرة ومرة ، ودامت المعركة ساعات طويلة وكادت تدور الدائرة على الجيش الفرنسي وخاصة أن خسائر جسيمة قد حاقت به ، الا أن ديزييه أصدر أوامره بهجوم عام معتمدا على قوة نيرانه واستطاع أن يحرز نصرا كان ثمنه غاليا .

وتحتل موقعة «سدمنت» جانبا هاما من معارك الحملة الفرنسية في مصر ، فهي لا تقل أهمية عن موقعة الاهرام ، لانها فتحت أمام ديزييه اقليم الفيوم وهو اقليم غني تستطيع القوات الفرنسية أن تعتمد عليه في شئونها الادارية وخاصة في ناحية التموين ، ومبلغ الأهمية هنا از خطوط مواصلات ديزييه من القاهرة كانت طويلة من ناحية ، وكانت مهددة بالقطع من ناحية أخرى ، مما كان يثير أمامه مشكلة خطيرة الا وهي مشكلة تموين قواته وإمدادها وتعويض الخسائر فيها .

٢ - في أواخر اكتوبر ١٧٩٨ استقر «ديزييه» في مدينة الفيوم ، وأخذ يعيد تنظيم قواته ليستأنف هجومه من جديد وبدأ في تحصيل الضرائب ومصادرة الغلال وجمع الخيول ، ولكنه قوبل بمقاومة عنيفة من الأهالي أمسكوا ولم يبذلوا له شيئا مما كان يطلب ، وأحس ديزييه

بروح التمرد والعصيان ، ويقول فى ذلك الجنرال «دونزلو» «كانت البلاد مستعدة للمقاومة من تلقاء نفسها ، فمما لا جدال فيه أن روح الثورة قد سرت فى القرى ، وتقدم ديزيه بقواته لاختماد حركات الهياج والثورة فاختل «مطرطارس» ، «وسيله» ، «وسريستنا» ، ولقى الفرنسيون مقاومة شديدة فى القرية الاخيرة فسلطوا عليها نيرانهم مما اضطر الاهالى الى اخلاء القرية والسير الى الصحراء ، ثم احتلت الحملة بعد ذلك قرية الروضة ، وقرية الروبيات .

وفى ١٨ من نوفمبر تجمع الثوار تجاه مدينة الفيوم ، وكان ديزيه قد ترك بها كتيبه من الجند بقيادة الجنرال «روبان» الذى أصيب بالرمد . فأناوب عنه فى قيادة الكتيبة الكولونيل «هويلو» وبدأ الثوار فى مهاجمة المدينة تتقدمهم طبول الحرب ، واستطاعوا أن يتغلبوا على الدوريات الفرنسية التى كانت تحرس مداخل المدينة وقدر الجنرال ديزيه عدد المهاجمين بثلاثة آلاف مقاتل ، وقال ريبو : انهم خمسمائة من الممالك وفصيلا من فرسان العرب وألفان من الفلاحين وتقدم الثوار الى منزل على كاشف حيث كان الفرنسيون وتبادل الفريقان اطلاق النار ، وكان الموقف فى جانب الفرنسيين ، فهم كانوا يختفون فى داخل المنزل الذى كان محكم التحصين ويطلقون النيران من النوافذ ومن الاسطح مما جعلهم أقل تعرضا لنيران المهاجمين من ناحية ، وأكثر احكاما فى اطلاق النيران من ناحية أخرى ، وكانت كمية النيران التى تعرض لها الاهالى كبيرة فصدت هجومهم ، ولكن سرعان ما جاءتهم امدادات أخرى من الفلاحين فتقدموا من جديد واستأنفوا هجومهم وقابلتهم نيران العدو قوية كاسحة ، مما أدى الى تدهورهم مرة ثانية .

٣ - فى بداية عام ١٧٩٩ سرت روح الثورة فى المدن الواقعة ما بين أسبوط وجرجا ، وصارت هذه المنطقة شعلة من الهياج والثورة . فقد تجمع اهالى ما يقرب من أربعين بلدا وبلغ عددهم سبعة آلاف ، وانضم اليهم بعض من أعوان مراد بك الذى استنجد بأشراف مكة وعرب ينبع وجدة وبعث برسله الى النوبة يستفزون الناس لمقاومة الفرنسيين ، وتصالح مع خصمه حسن بك الجداوى الذى كان مقيما فى اسنا ليوحد الجبهة ضد الفرنسيين ، وتميزت الثورة الوطنية فى الصعيد بنطاقها الواسع ومداه البعيد ، الا أن الفرنسيين أحسوا بقوتها وأدركوا خطرها فقرروا العمل فورا ضدها وقامت بينهم وبين الاهالى معارك كانت أشبه بالمذابح واعتمد فيها الفرنسيون اعتمادا كبيرا على نيران المدفعية ، فى حين كان الاهالى مزودين بأسلحة قديمة .

فى سوهاج التقى الجنرال «دافو» فى يناير ١٧٩٩ بأربعة آلاف من الفلاحين ، وسبعمائة من الفرسان وأطلق عليهم نيرانا حامية رفعت عدد القتلى الى ثمانمائة .

وظن الفرنسيون أن هذه الكارثة التى حلت بالاهالى ستكون ذات آثار ايجابية فى اخماد الثورة ، ولكن الواقع أن الاهالى استمدوا من هذه الهزيمة دافعا لمواصلة الثورة ، فلم تنكسر شوكتهم ، ولم تفتر عزيمتهم .

واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من أسيوط ، رجالا وركبانا . . وانضم اليهم مقاتلون كثيرون من المنيا وبني سويف والفيوم ، وكلف الجنرال «دافو» مواجهة هذه الجموع فوصل في ٨ من يناير تجاه «طهطا» حيث التقى بنحو ثمانمائة فارس ، الا أن هؤلاء تهاقروا أمام القوة الفرنسية وأخلوا الطريق لها ثم زاد عددهم الى نحو ألفين نتيجة للامدادات التي وصلت اليهم ، وهاجموا مؤخرة الجيش الفرنسي ودارت معركة عنيفة بين الطرفين وكانت خسائر الاهالي كبيرة فانسحبوا وتقدم الاسطول الفرنسي الى جرجا ، حيث علم أن ما يقرب من ١٢ ألف مقاتل يرابطون في «سمهود» فتقدم اليهم ديزيه والتقى بهم في ٢٢ من يناير ، واستخدم وسائل الحرب الحديثة ، وقسم جيشه الى ميمنة يقودها الجنرال «فريان» وميسرة يقودها الجنرال «بليار» ووضع فرقة الفرسان في القلب بقيادة الجنرال «دافو» وجعل المدفعية على زوايا الجيش تحميهِ ، وتصلي الثوار نيرانها وبهذا الترتيب ، قابل الجيش الفرنسي الثوار الذين كانوا يفوقونه عددا ، ولكن يقلون عنه مقدرة وتكتيكا ، ويرجع الى ذلك السبب في انهزام الثوار في هذه المعركة .

٤ - في ٦ من فبراير قصد الجنرال «بليار» بقوته جزيرة « فيلة » ولما أراد ان يعبر النيل اليها على مراتب الاهالي ، رفض الاهالي تسليم مراكبهم فعاد الى أسوان ، ثم عاود المحاولة مرة أخرى بعد بضعة أيام الا أن الاهالي وقفوا في وجهه يمنعون من تحقيق عزمه ، وقوبل بمقاومة عنيفة تحدث عنها في يومياته فقال : حمل الاهالي اسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، وراينا النساء ينشدن أناشيد الحرب ويحشون التراب في وجوهنا ، أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ربوا البحر ، وكنت قد أحضرت معي مدفعا لاختصاصهم ، فدعوتهم الى الصلح والسلام فكان جوابهم انهم لا يقبلون منا كلاما ، وانهم لا يفرون من أمامنا كما يفر المماليك ، واستأنفوا اطلاق الرصاص ، فخرج ثلاثة من رجالنا ولم يكن لدينا مراكب نصل بها الى الجزيرة وحاولنا أن نتخذ من جذوع النخل طوقا ينقل الجنود ، ولكن المياه غمرته ، فاضطررنا الى أن نرجىء احتلال الجزيرة ، وبقيت الجنود ترابط يوم ١٩ من فبراير على شاطئ النيل تجاه الجزيرة وأطلق علينا الفلاحون الرصاص .

واستطاع الجنرال «بليار» بعد ذلك أن يحتل المدينة معتمدا على قوة نيرانه .

٥ - وقعت المعارك بين الاهالي والفرنسيين في الفترة ما بين ١١ من فبراير ، ٢٥ منه ، فقد اصطدم الجنرال «دافو» بجموع من الثوار في ١١ من فبراير بالروسية (جنوب ادفو ولكن على البر الشرقي للنيل) ودامت المعركة ثلاث ساعات استخدم فيها السلاح الابيض ، واشتبك المقاتلون فيها وجها لوجه وخسر الفرنسيون خسارة جسيمة ، وبلغ عدد قتلاهم ٣٧ من بينهم أحد الضباط ويدعى «فونتت» وانسحب الثوار دون خسائر تذكر .

أما في قنا فقد احتلها الجنرال «فريان» ومعه قوة بقيادة «كونرو»

وقام الثوار بمهاجمتها وخرج الضابط كونرو وكذلك الضابط «دروذن» واستطاع الجنرال «فريان» أن يمنع الثوار من استئناف هجومهم المسلح ، فربطوا في قرية أبو مناع حيث دارت معركة أخرى تغلبت فيها المدفعية كما حاول الثوار مهاجمة الفرنسيين في اسنا في ٢٥ من نبرابر وبعد معركة دامت ساعه استتب الامر للفرنسيين .

٦ - عندما تحرك الجنرال «ديزييه» من «قوص» سبقه اسطول الذي كان يسير ببطء في النيل ليلحق بالجيش في أسيوط وبعثت المسافة بين الجيش البري والأسطول وانتهاز الاهالي الوطنيون هذه الفرصة وقرروا مهاجمة الاسطول الذي كان عدده اثنتى عشرة سفينة حربية تحمل ذخائر الجيش ومثونته وكانت تتولى قيادة هذه السفن السفينة الحربية «ايتاليا» وهي سفينة كبيرة يقودها القومندان «موراندى» .

وفي ٣ من مارس ١٧٩٩ وعلى مقربة من قرية «بارو» جنوبى قنا هاجم الاهالي السفن وأطلقوا عليها الرصاص ، فأجابتهم باطلاق مدافعها عليهم واستطاع الاهالي ، بعد أن ألقوا بأنفسهم في المياه وسبحوا في النيل أن يهاجموها ، وأن يستولوا عليها وأن يفرغوا سجناتها على شاطئ النيل ، ثم امتطوها وقصدوا بها الى السفينة الحربية «ايتاليا» ففكر قائد السفينة في الانسحاب بها حينما وجد أن جنوده قد آثنتهم الجراح ، وان جموعا أخرى من الاهالي قد تحفزت على الجانب الآخر للنيل للهجوم عليه وتدخل عامل الطبيعة فعاكست الريح السفينة فجنحت وأسرع اليها الاهالي وصعدوا على ظهرها ولكن «موراندى» برغم ما أحاط به من الخطر أبى الاستسلام ، ولجأ الى خديعة مرة اذ أشعل النيران في مستودع البارود وألقى بنفسه ورجاله في النيل ، وانفجر مستودع البارود ونسفت السفينة ، فقتل عدد كبير من الاهالي ، واندفع الاهالي الى اليم يقاتلون الفرنسيين وتمكنوا من قتلهم جميعا بما في ذلك «موراندى» .

وكانت كارثة السفن الفرنسية في «بارو» أكبر خسارة منى بها الجيش الفرنسى حتى أن نابليون حزن حزنا شديدا واعتبر فقد السفينة «ايتاليا» بداية لأفول نجم فرنسا ، حتى أنه قال لمن حوله : ان فرنسا قد فقدت «ايتاليا» ، ان شعورى لا يكذبنى ، وكان يقصد البلاد الايطالية لتشابه الأسماء .

٧ - فى ٨ من مارس ١٧٩٩ التقى «بليار» بثلاثة آلاف من الاهالي الثوار في سهل «قفط» ودارت بينهم معركة حامية الوطيس ورأى الثوار أن ينسحبوا الى «أبنود» ليواصلوا منها معركتهم ضد الفرنسيين ، وهناك أقاموا التحصينات ونصبوا المدافع الفرنسية التي غنموها من موقعة بارو النيلية ، وعندما اقتربت قوات الجنرال «بليار» فتحت المدفعية نيرانها عليها ، وأحس الفرنسيون بالخطر ، ووجدوا أن مصدر الخطورة هو مجموعة المدافع الموجودة مع الثوار ، فوجه بليار كل همه الى الاستيلاء عليها ، وتمكن من ذلك ، ثم اشتد القتال بين الفريقين وتحصن الاهالي في منازل القرية ودارت معركة هي أشبه بحرب الشوارع والبيوت ، ولم

يستطيع الفرنسيون أن يحرزوا نصرا فما كان من بليار الا أن لجأ الى الطريقة الفرنسية المعهودة فأصدر أوامره بإشعال النار في القرية ، وعندما تحولت البلدة الى الحرائب تجمع الثوار في قصر حصين وفي مسجد يجاوره وأخذوا يناوشون عدوهم ويطلقون عليه الرصاص ، وتكبد الفرنسيون خسائر فادحة ، ونصبوا المدافع ، بحيث تشرف على القصر وأشعلوا النار في المسجد ، وأخذوا يقصفون القصر بالمدافع وبذلت محاولة لفك الحصار عن القصر ، الا أنها باءت بالفشل وشدد الفرنسيون الحصار والضرب ، وأشعلوا النار في القصر ، وكاد المحاصرون يخنقون لانتشار الدخان في أرجاء القصر فنزلوا الى ساحته واستبسلوا في القتال .

وفي اليوم الثالث للمعركة اقتحم الفرنسيون القصر فوجدوا به ثلاثين من الوطنيين قد أقعدهم الاعياء ونالتهم الجراح ومع هذا ظلوا في مقاتلتهم حتى تغلب عليهم الفرنسيون وقتلوهم وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولا وأطولها زمنا لأنها دامت ثلاثة أيام لم ينقطع خلالها القتال وكان حريق القرية وما أصابها من الدمار أفظع مأساة وقعت في معارك الحملة الفرنسية .

٨ - التقى في بئر عنبر ١٥٠٠ من الثوار بالجيش الفرنسي بقيادة الجنرال « ديزييه » وكانت الفرسان تتقدم المشاة واستطاع الاهالي أن يخوضوا غمار معركة ضد الفرسان وقتلوا فيها عددا من الضباط الفرنسيين منهم «دوبليس» ، «وبوفاتيه» وتعرض الجنرال «ديزييه» للخطر وكاد يقتل في المعركة وانسحب الثوار من ميدان المعركة بعد أن وقعوا بالفرنسيين خسائر فادحة وفقدوهم اثنين من خيرة الضباط .

٩ - وصلت الى الجنرال «ديزييه» معلومات تفيد بأن الاهالي في مديرية جرجا قد احتشدوا بالبر الشرقي لقطع مواصلات الجيش الفرنسي . وأن الثورة على وشك أن تندلع في هذه المنطقة ، فبعث الجنرال « دافو » على رأس قوة من الفرسان لاختضاع الاهالي فيما بين قنا وجرجا ، وأمر الكولونيل «موراند» باحتلال المرتفعات المشرفة على النيل ليمنع الثوار من عبوره .

وفي «برديس» (٦ من ابريل ١٧٩٩) التقى «موراند» بالثوار من الاهالي وواجه هجوما عاما على جنوده فشل في أول الامر ثم نجح بعد ذلك ، وعجز موراند عن ايقاف الهجوم فتقهقر الى جرجا ، وأثار تقهقره حماسة الاهالي وشجاعتهم فطاردوه وتعقبوا فلوله . وتجهوا الى جرجا لاحتلالها ، وكانوا خلال تقدمهم يتلقون العون من سكان البلاد التي يمرون بها وقدر الجنرال «دافو» عددهم بثلاثة آلاف من الفلاحين وبدعوا هجومهم على جرجا في ٧ من ابريل واستطاعوا دخولها الا أن الفرنسيين بعد قتال عنيف صدوهم عنها ، وكانت الثورة قد امتدت الى طهطا واستولى عليها الثوار .

وسرت الثورة الى القرى المجاورة فتحركت اليهم قوة بقيادة لاسال والتقت بالثوار في جهينة ، وهي قرية جنوبى طهطا وحاصر الفرنسيون

البلدة وضربوها بالمدافع ، ودار قتال شديد فى داخلها ، وحوصر الاهالى بها ، وقاوموا عدة ساعات واستطاع الفرنسيون فى نهاية الامر احتلالها .

وفى هذه الاثناء وصل الجنرال دافو الى جرجا وطهطا ثم تركهما الى اسيوط حيث كانت ثورة قد امتدت اليها واتخذ الثوار « بنى عدى » معسكرا لهم ، وهى تقع على طرف الصحراء غربى منفلوط ، ويقول عنها «دافو» انها من اكبر بلاد الوجه القبلى سكانا ، وأغناها وأعظمها مكانة وان الثورة عمت فيها من أقصاها الى اقصاها ، وان أهلها كانوا يرسلون جماعات الى شاطئ النيل لمهاجمة السفن الفرنسية واشتهر أهل هذه البلدة بالقوة وشدة البأس واجتمع بها ما يقرب من ثلاثة آلاف من المسلمين وانضم اليهم ثلثمائة من المماليك ، وعندما وصل «دافو» الى موقع الثوار أطلق الاهالى الرصاص على الجنود وأصابوا الكولونيل « بينون » ، وتولى القيادة بعده «راباس» ودارت معركة حامية الوطيس فى الطرقات والبيوت التى انهار منها الرصاص على الفرنسيين ، ولجأ الفرنسيون الى وسيلة الحرق فأشعلوا النار فى البلدة التى غدت كأتون من نار ، وبهذه الوسيلة وحدها استطاع الفرنسيون القضاء على مقاومة « بنى عدى » التى اعترفوا بأنهم لم يقابلوا بمقاومة مثلها .

١٠ - علمت القيادة الفرنسية أن الثورة امتدت الى مديرية المنيا وبنى سويف ، وكان الجنرال «ديتريس» قائدا للحملة الفرنسية فى المنيا فصدرت الأوامر للجنرال «دافو» بالتحرك الى المنيا لاصطاد الثورة ، وحدثت مصادمات كثيرة على طول الطريق كان أهمها ما حدث فى « أبو جرج » فقد امتنع أهلها عن تقديم المئونة للجنود ، وأقبل الاهالى من جميع النواحي يحملون السلاح لمعاونة أهل «أبو جرج» وامتلات بهم المزارع وتبودل اطلاق النيران ، فأمر «دافو» بحرق القرية .

وتقدم بعد ذلك الى المنيا ولكن الثورة كانت قد امتدت قبل وصوله فواجهها «ديتريس» وحده ، ونشبت معركة حامية الوطيس استمرت ثلاثة أيام فى المنيا ، اذ تجمع الاهالى وأعدوا أنفسهم للهجوم على الحامية الفرنسية ، فأخذهم «ديتريس» على غرة ، والتقى بهم فى « تله » ودارت معركة بين الفريقين وخاضها «ديتريس» بتشكيل جديد للحرب اذ جعل قوته مربعة وسلط مدافعه على الثوار ، واستمر القتال أربع ساعات استطاع بعدها الثوار أن يتغلبوا على القوة الفرنسية فانسحبت الى المنيا وتحصنت بها ، وتبعته قوات الثوار فوصلوها ليلا وعادوا الى تله ، وفى اليوم الثانى استعد الجنرال ديتريس لمقاومة الاهالى وصد هجومهم المنتظر ، فوضع الرماة خلف الهضاب العالية ، وقدم الثوار وهاجموا الفرنسيين وهم يصيحون صيحات القتال ، ودارت المعركة ، والفرنسيون فى وضع الدفاع ، ونجح الاهالى فى الضغط على القوة الفرنسية التى تدافع عن الباب الشمالى للمدينة فانسحبت الى الداخل ، ولحق بهم الجنرال «ديتريس» واقتحم الاهالى أبواب المدينة الأخرى ودخلوا المدينة ، وبدأت المدفعية تصد جموع الثوار ، واستطاع الفرنسيون أن يسيطروا على المدينة وانسحب منها المهاجمون ، ثم عاد الثوار فى اليوم الثالث الى المدينة وهاجموا الفرنسيين ، وفشل هجومهم وانتهت المعركة .

واخيرا

ننتهى من هذا السرد المتعدد الجوانب للنضال الشعبى فى الوجه القبلى الى أن الفرنسيين لم يستطيعوا اخضاع الوجه القبلى اخضاعا تاما لهم واقرار السلطة الفرنسية فيه لان قوات الجنرال «ديزييه» ظلت تطارد قوات شتى لاعداد لها ، ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع من جديد وتعود ثانية للنضال ، ومعنى هذا انه صار يحارب حربا لانهاية لها فى ميدان واسع مترامى الأطراف يمتد من الجيزة الى أسوان ومن القصير الى واحات الصحراء الكبرى .

ويتضح لنا من هذا العرض أن الفرنسيين قاوموا ثورة الاهالى وكافحوها بالقوة المسلحة وبالنيران وبالارهاب وبالقسوة وبالفظائع الرهيبة التى امتلأ بها تاريخ حروبهم فى الوجه القبلى ، ولا شك فى أن هذه العوامل برغم عنفها أدت دورها فى خضوع قطاعات كثيرة من بلاد الوجه القبلى ، ومع هذا فانها لم تخضع مشاعر الاهالى أو عواطفهم التى ظلت متأججة تحت دافع وطنيتهم ورغبتهم فى تخليص البلاد من الفرنسيين وهذه المشاعر التى تملكك الاهالى فى الوجه القبلى بالاضافة الى مشاعر اخوانهم فى الوجه البحرى جعلت الأمور فى البلاد غير مستقرة بالنسبة للفرنسيين حتى انهم أحسوا أن مشروعاتهم الكثيرة التى جاءوا من أجلها قد بدأت تميل الى المغيب والأفول .

البَابُ الْخَامِسُ ثَوْرَةُ الْقَسَاهَةِ الْأُولَى

أسباب الثورة
أول الثورة ... مظاهرها
أحداث الثورة
ماذا بعد الثورة

أعلن المصريون غضبتهم انكبرى على فرنسا والفرنسيين منذ وطئت
أقدام الحملة الفرنسية أرض مصر ، وفى الوقت الذى ثار فيه الشعب
المصرى فى الوجه البحرى ، ثار المصريون فى الوجه القبلى ، كما ثار
المصريون من أهالى القاهرة ثورتهم الكبرى فى أكتوبر ١٧٩٨ ، وأن قيام
ثورات فى جميع أنحاء القطر المصرى شماليه وجنوبيه ، يعنى معنى ساميا
ويبرز مشاعر المصريين لوطنهم وعواطفهم نحو بلادهم ، وتمسكهم بحريتهم
وسيادةتهم واستقلالهم ، لقد هب المصريون جميعا فى جميع أرجاء الديار
المصرية ثائرين مناضلين ، مكافحين ، باذلين من ذات أنفسهم غاية ما
يستطيعون لطرد المحتل ، ولتطهير البلاد من دنسهم واستعبادهم وكانت
ثورة القاهرة أعنف هذه الثورات ، فقد اتخذت شكلا جديدا فى المقاومة ،
وصورة تبدو فيها وطنية المصريين واضحة المعالم .

قلنا ان نابليون حين استقر به الامر فى القاهرة بعد انتصاره فى
معركة الاهرام ، بذل جهودا كبيرة للتقرب الى الاهالى ، وكان يسعى سعيا
حثيثا متواصلا الى اجتذاب القلوب اليه ، والى تهدئة النفوس ، وايجاد
نوع من الثقة بين المصريين ، وبين أفراد الحملة الا أن المصريين وهم يلمسون
محاولات نابليون فى التقرب اليهم لم يغب عن بالهم أن نابليون وجنوده
محتلون ، يستهدفون أول ما يستهدفون مصالحهم الخاصة ومنفعتهم
الذاتية ، ومن أجل هذا كان المصريون على حذر وحرص ، وكانوا يعدون
أنفسهم للحظة الخلاص ، وقد عاهدوا الله على البذل والفداء من أجل تحرير
بلادهم وطرد الفرنسيين من أرضهم .

أسباب الثورة ...

وثورة القاهرة كان لها أسباب ودوافع ، يحتل مكان الصدارة فيها
الدافع الوطنى ، وفامت بجانبه دوافع أخرى لم تكن دوافع أساسية برغم
أنها كانت ذات أثر كبير فى توجيه دفة المشاعر الوطنية ناحية الثورة ،
والدافع الوطنى مفهوم فى معناه ، ولعل هذا الدافع كان الاداة التى
استخدمها العلماء لاثارة المشاعر عند الاهلين ، فقد استطاع رجال الدين
والعلماء أن يثيروا النفوس وأن يمهّدوا للثورة ، وأن يجمعوا الصفوف
وأن ينظموها ، وأن ينشروا الدعوة للثورة ، وكونوا لجنة سميت « لجنة
الثورة » كان مقرها الجامع الازهر ، وكانت مهمتها اثاره الكراهية فى
نفوس الناقمين .

١ - بجانب العامل الوطنى ، يقفز عامل آخر لياخذ مكانه فى اثاره
النفوس ضد الفرنسيين ، ونعنى به عامل فرض الضرائب ، فنحن نعرف
أن المصريين كانوا يشتكون مر الشكوى من فداحة الضرائب التى فرضها
المماليك فى فترة ما قبل الحملة الفرنسية ، وكانت الضرائب تثقل كاهلهم

وتزيد أعباءهم حتى أن حياتهم الاجتماعية كانت مثقلة بما جعل الناس يعيشون في كرب وهم ، ولما جاء نابليون توقع الناس أن يخف الحمل ، وأن يزول الظلم الضرائب ، وأن يتنفس الناس الصعداء ، فيعيشوا حياتهم رتيبة هادئة ، فيها أمان على لقمة العيش ، وفيها أمان على مكاسب الفرد ، إلا أن نابليون سار على نهج المماليك ، وخاصة حين دمر أسطوله في أبي قير ، وأصبح اعتماده يقوم أساساً على ما تمده به البلاد ، فما إن دخل القاهرة حتى فرض على سكانها ضريبة فادحة في شكل سلفة اجبارية قدرت بخمسمائة ألف ريال (أى مائة ألف جنيه) ، أى أن نابليون بدأ عمله في القاهرة بارهاق الأهالي بالضرائب ، وفي هذا قال الجبرتي « انه في يوم السبت ٢٨ من يوليو ١٧٩٨ (يلاحظ ان معركة الاهرام انتهت في ٢٢ من يوليو) اجتمع الديوان وطلب منه نابليون سلفة خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام ، وتجار الافرنج فسأل أعضاء الديوان التخفيف ، فلم يجابوا ، وذكر « ديلاجونكيير » أن نابليون فرض قروضا اجبارية في الايام الاولى للحملة على مختلف الطبقات ، ففرض مثلاً ٣٠٠٠٠٠ فرنك على تجار الاسكندرية ، ١٠٠٠٠٠٠ على تجار رشيد ، ١٥٠٠٠٠٠ على تجار دمياط ، ٦٠٠٠٠٠ ألف ريال نقداً ، ٤٠٠٠٠٠ على تجار المنسوجات ، بالقاهرة ، ٢٠٠٠٠٠ ريال على تجار البن والبهار بالقاهرة ، ١٠٠٠٠٠٠ ريال على تجار خان الخليلي ، ١٠٠٠٠٠ ريال على وكالات الصابون ، ٦٠٠٠٠ على وكالات الفاكهة ، ١٥٠٠٠٠ على السائقين ، ١٠٠٠٠٠ على تجار السكر ، ١٥٠٠٠٠ على تجار الاقمشة الهندية ولاشك في أن هذه الضرائب والقروض كانت تشكل خطراً داهماً وعبئاً جسيماً تنوء به البلاد ، وخاصة أن البلاد كانت تعاني الكثير من الضنك والفاقة والحاجة » .

وافتن الفرنسيون في ابتزاز الاموال ، وفي مصادرة الممتلكات وأثاروا مشاعر المصريين بما فرضوه على نساء البكوات المماليك اذ أمر نابليون بأن تصالح كل منهن عن نفسها وأتباعها بمقدار من المال ، كما سمح لهن بسكنى بيوتهن نظير مبالغ من المال ، ويقول «ريبو» ان مجموع ما فرضه الفرنسيون على نساء المماليك بلغ ٦٠٠٠٠٠ فرنك ويبدو أن ريبو أخطأ في التقدير ، لان نابليون كان قد أصدر في أغسطس ١٧٩٨ أمراً بأن تدفع السيدة « نفيسة » زوجة مراد بك ٦٠٠٠٠ فرنك عن نفسها وعن نساء أتباع زوجها وقيل ان زوجة مراد بك باعت حليها وجواهرها لكي تستطيع أن تدفع حصتها في الغرامة .

واستمر الفرنسيون يفرضون الضرائب ويجمعون الاموال ويفتنون في استخراجها من أهل البلاد ، فابتدعوا نظام اثبات الملكية وتسجيل السندات والعقود ، وفرضوا اتاوات ورسومًا لهذه العمليات كلها .

٢ - ولما كان سوء الحالة المالية عند الأهالي من أسباب تدميرهم وشكواهم ، كذلك كان شأن مصادرة الاملاك ، وهدم المباني ، فقد أخرج الفرنسيون كثيراً من الأهالي من بيوتهم بدعوى انهم في حاجة اليها ، كما هدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد ، بدعوى رغبتهم في تحصين القاهرة ومن

أجل ترميم القلعة هدم الفرنسيون جميع البيوت المحيطة بها ، بعد أن أمروا سكانها باخلاؤها ، وامتد هدمهم الى بعض المساجد القريبة مما أثار مشاعر المصريين وغضبهم على ما يرتكبه الفرنسيون في حقهم من مظالم .

كانت القاهرة في عهد المماليك مجموعة من البيوت والمساجد وكانت مقسمة أقساما تكثر بها الحارات والدروب وكان لكل منها باب يغلق في الليل بقصد بقاء كل حارة في أمان من اعتداء اللصوص ، فلما جاء نابليون رأى أن يزيل هذه الابواب حتى لا تستخدم وقت النزوم ضد الفرنسيين وحتى لا تقف حجر عثرة أمامهم عند فرض ارادتهم على المدينة وأصدر نابليون أوامره الى مهندسيه بهدم هذه الابواب ، فاشتد قلق الناس ، وباتوا في خوف دائم من الفرنسيين وظنوا بهم الظنون ، فمن قائل ان الفرنسيين سيقتلون المصريين ومن قائل ان الفرنسيين أزالوا هذه الابواب ليفرضوا ارهابهم على الاهلين ، وأدى ازالة الابواب وهدمها الى تدمير الاهالى وسخطهم ، ويصور هذا التدمير وذاك السخط الجنرال « لوجيه » في قوله « أمر القائد العام بنزع هذه الابواب وتدمير الاهالى وجعلوا يصيحون ويسخطون وأقلل التجار دكاكينهم احتجاجا على هذا العمل »

ومما يؤكد ان الاهالى قد أغضبهم إقتلاع أبواب الدروب والحواري انهم حينما قاموا بثورتهم هاجموا بيت الجنرال « كافاريللي » وهو من أبرز قواد الجيش الفرنسى وأغزروهم علما جاء الى مصر فاقدا إحدى قدميه وكان الجبرتي يطلق عليه اسم « كافرلى المسمى بأبى خشبة » ، واختاره نابليون رئيسا لفرقة المهندسين ، وكان يقطن فى الدرب الاحمر ، وكان به وقت الهجوم اثنان من مهندسى القناطر والجسور هما « تيفنو » ، و « دوفال » فقتلها الثوار ، كما أفسدوا ما وجدوه بالبيت من آلات فلكية وهندسية ، وكان من القتلى الذين لقوا مصرعهم على أيدي الثوار المسيو « تستيفيود » وهو كبير المهندسين ، ولعل هذا الهجوم والقتل يعد انتقاما من هؤلاء الذين كانوا يشرفون على عمليات الهدم ، واقتلاع الابواب ، وتخريب البيوت والمساجد .

٣ - ويقوم بجانب هذه الاسباب عامل جديد تمثل فى المظالم الكثيرة التى تعرض لها الاهالى ، وذىوع القتل والهدم والتخريب والارهاب فى جميع أنحاء البلاد ، مما أثار النفوس على الفرنسيين ، وزاد فى حنق الناس عاينهم ، وأشعل الثورة غى نفوسهم ولعل أول ما أثار النفوس هو اعدام السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية ، وقد كانت له منزلة كبيرة فى نفوس أفراد الشعب ، وكانوا ينظرون اليه نظرتهم الى زعيم مجاهد وعالم دينى فاضل ؛ كما تكررت حوادث القتل فى داخل البلاد ، فكم تناول الناس بالحديث الغاضب الحائق حوادث القتل فى المديرىات المختلفة ، وحوادث حفظ الرهائن واعتقالهم وحوادث الهدم التى تعددت فى أكثر من قرية ومدينة ، لقد ظن الفرنسيون أنهم بالارهاب والقتل والتخريب يستطيعون إخضاع الناس ، ولهذا صدرت الاوامر مشددة من نابليون شخصيا الى نوابه فى المديرىات باستعمال منتهى القسوة من قتل وتخريب وحرق

وسلب ونهب لضمان اذعان الاهالى ، فقد كتب الى احد قواده يقول « انى هنا أقتل كل يوم ثلاثة وآمر بأن يطاف برءوسهم فى شوارع القاهرة وهذه هى الطريقة الوحيدة لاختضاع الناس » .

أول الثورة ... مظاهرة

كل هذه الاسباب مجتمعة جعلت فكرة الثورة تختمر فى الازهان وبدأت النفوس تستعد لها ، وفى ليلة ٢١ من أكتوبر عقد اجتماع حضره ثلاثون من زعماء البلاد ، واستقر الرأى على اغلاق الحوانيت والسير فى مظاهرة كبيرة الى القيادة الفرنسية لابلاغها رغبات الشعب وعرض وجهات النظر فيما يتعلق بالضرائب وبأعمال الهدم التى تقوم بها القوات الفرنسية

وفى صباح ٢١ من أكتوبر خرج الناس من بيوتهم يتحدثون فى أمر الثورة ويخطبون مشتعلين بخطبهم نيران الحماسة فى النفوس ، ويؤيدون فكرة الانقضاى على الفرنسيين ، ويتعاهدون على أن يكونوا جميعا يدا واحدة وقلبا واحدا يسعى الى هدف واحد ، وظهرت الاسلحة فى أيدي الاهالى ، وجاء الفلاحون من الضواحي والبلاد القريبة ، ويصف « ريبو » البحالة فيقول « سادت الجلبة ، واختلطت الاصوات ، وعلت الصيحات ، فكان هذا المنظر يبعث الرهبة فى نفوس أشجع الناس ، ولم يعد هناك شك فى أن الثورة قد بدأت » .

أحداث الثورة ...

١ - تجمع الناس عند بيت القاضى التركى ابراهيم أدهم وقابله وفد من الناس ، وطلبوا منه أن يذهب معهم الى بونا برت ليعيد النظر فى فرض الضرائب ، فاستجاب لهم ، ولكنه فوجئ بالجموع الزاحفة التى لا يمكن حصرها فأبى أن يخرج على رأس هذه الجموع وخاف نتيجة هذا التجمع الكبير ، فلم يبال به الاهالى ، وتعدوا عليه بالضرب ، وصارت الجموع الى الازهر وامتلاأت الطرق والشوارع بالناس ، وابتدأت الحشود تتجه الى حيث يعيش الفرنسيون ، وبدأت عمليات الهجوم على مواقع الفرنسيين ، ولم يكن نابليون موجودا بالقاهرة فى هذا اليوم ، وكانت مقاليد الامن ملقاة الى الجنرال « ديبوى » الذى لم يقدر الموقف تقديرا صائبا ، ولم يحسب له حسابا ، فأوفد بعض الدوريات القليلة العدد لاستطلاع الامر ، ووصلت اليه أنباء الثورة المسلحة ، والحشود الغفيرة ، فاصطحب ياوره « مورى » وترجمانه التاجر الفرنسى « بودوف » ، واتجه الى بيت القاضى ليلتقى بالاهالى ويقف على أسباب الثورة وأصدر أوامره فى ذات الوقت الى القوات المرابطة فى بركة الفيل بأن تكون على أهبة الاستعداد للتدخل والتصرف الحازم .

اتجه « ديبوى » من بركة الفيل حيث منزله (كان يسكن بيت ابراهيم بك) الى الموسيقى ، ومنه الى شارع الغورية وأراد أن يذهب الى بيت القاضى فى « بين القصرين » ، ولكنه فوجئ بالجموع تسد عليه الطريق ، فأخذ يشق لنفسه طريقا بينها ، ولم يتمالك الناس نفوسهم فبدءوا يلقون عليه

الاحجار ، وعندما غادر « بين القصرين » ، وباب الزهومة أغلق عليه الثوار الطريق ، وحاول « تودوف » أن يتفاهم مع الناس فلم يستطع لشسدة ثورتهم ، وأراد « ديبوى » أن يستخدم العنف ولكن الاهالي كانوا فى ذلك الوقت فى شارع ضيق لم يسمح لفرسان ديبوى بالحركة ، وأطبق الناس على الجنرال من كل جانب فى الوقت الذى وصل فيه « برتملى » الرومى ، وهو رجل من الروم كان مشهورا بالقسوة وكان صاحب حانوت فى الموسيقى يبيع فيه القوارير وعهد اليه الفرنسيون بوكالة محافظة القاهرة ، وكان الناس يكرهونه لشدة وقسوته ، وقظائعه وشروعه ، فأطلق « برتملى » الرصاص على الاهالي فأثار الرصاص غضبهم ، وبدءوا هجوما عنيفا على الفرنسيين ، وانهالوا عليهم ضربا بالعصى وقذفا بالاحجار ، واستخدموا السيوف والرماح والسهام ، وأصيب ديبوى فى ثديه الايسر اذ أصيب بطعنة رمح وتفجر الدم منه ، ونقل الى دار الجنرال « جونو » بالازبكية حيث الدكتور « لارى » لاسعافه ولكنه مات متأثرا بجراحه .

وكان مقتل « ديبوى » نقطة تحول فى أحداث الثورة فما أن علم به الثوار حتى ازدادوا حماسة ، وانحازت الجموع الهادئة الى الثوار ، وزاد العدد وتضاعف واشتدت حمية القتال ، وأستولى الثوار على المواقع المحيطة بالقاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب زويلة ، وأقاموا المتاريس فى الشوارع ، ونصبوا أسلحتهم من ورائها ؛ وجاءت جموع كثيرة من القرى تنضم الى الثوار ، وأصبحت المدينة تموج كالبحر الخضم .

وأحس نابليون بخطورة الموقف فأعلن التعبئة ، وجاء بنفسه الى القاهرة ليواجه الموقف فى الوقت الذى اجتمع بالجامع الازهر ١٥٠٠٠ من الثوار ، وقد وصف الكولونيل « ديتروا » ، ما شاهده فى يوم الثورة فقال « ٢١ من اكتوبر ١٧٩٨ والساعة السادسة صباحا احتشدت الجموع فى عدة أحياء من القاهرة وعلت أصوات السخط والاستياء ، وأخذ الناقمون يعددون أسباب سخطهم ، وصاح المؤذنون على ماآذنههم ينادون نداءات مثيرة للخطاير ، وأسرع الناس المسلحون بالبنادق والعصى يقصدون الاجتماع فى صعيد واحد ، ثم أقفلت الدكاكين ، وفى نحو الساعة الثامنة صباحا ، علم الجنود الفرنسيون بهذا الشر ، فتأهبوا للقتال ، وكان القائد العام ، مطمئنا لموقفه فركب جواده ، وصحب من القواد كافاريللى ، ودومارتان ، وكنت معهم ، وذهبنا نتفقد استحكامات مصر القديمة ، وجزيرة الروضة ، وفى نحو الساعة العاشرة جاء الخبر أن القتال قد بدأ فى المدينة وان أناسا قتلوا من الفريقين ، وأن الجنرال « ديبوى » قومندان القاهرة ضمن القتلى صرعه الثائرون برمية سهم نفذت الى ثديه وكان فى كتيبة من الفرسان ، ذهب القتل بكثير منهم ٠٠٠ »

وأوضح « ديتروا » فى يومياته مواقع كل من الفريقين ، فقد جاء فى هذه اليوميات « كان الفرنسيون يحتلون المواقع الآتية ٠٠٠ القلعة حيث كانت لنا مدفعية قوية ، وميدان بركة الفيل حيث كان يعسكر معظم الجنود ، ثم ميدان الازبكية مقر القيادة العامة ، وكان يحميه ١٥ مدفعا ،

وقد أمكننا بعد جهد وصعوبة ، أن نمد الاتصال بين هذه المواقع المختلفة أما المعسكر العام للتأثرين فكان الجامع الكبير المسمى بالازهر ، ذلك المسجد الجميل الذى طارت شهرته فى أنحاء البلاد ، وقد أقام الثائرون المتاريس على منافذ الشوارع المفضية اليه ، فأصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود المشاة .

٢ - أصدر نابليون أمرا الى الجنرال « دومارتان » قائد المدفعية بأن يضع مدافعه فوق المقطم على أن يختار هذه المواقع فى شرق القلعة حتى تتعاون مع المدافع المنصوبة فوق القلعة فى ضرب الثائرين المتجمعين فى الجامع الازهر ، ثم أصدر أوامره الى الجنرال « جونو » بأن يتولى قيادة القوات الفرنسية العسكرية فى منطقة الازبكية ، وأن يقيم دوريات من الجنود تقوم بمراقبة المناطق المجاورة لها وأن يعد دوريات مسلحة تقوم بعملية الكشف فى مناطق القاهرة المختلفة ، وأن يضع مدافعه على منافذ الشوارع الهامة التى قد يستخدمها الثوار فى تقدمهم .

وأمر نابليون أيضا بتعيين الجنرال « بون » قومنداناً للقاهرة خلفا للجنرال « ديبوى » وكلفه اتخاذ اللازم لاعادة النظام فى المدينة ، ثم كلف الجنرال « لان » قائد معسكر مصر القديمة احتلال المرتفعات القائمة فى خارج المدينة على أن يرتب شئونه الادارية من المؤن لمدة يومين ، وأخيرا بعث الى بون يقول « المظنون أن غدا كالיום ، ولا سبيل غدا الى تثبيت الجموع المسلحة التى تتدفق من هذا المعسكر الثورى لذلك أرى أن تقررُوا اتخاذ وسائل الشدة والصرامة » .

ووجه نابليون بعضا من الجنرالات مثل الجنرال « فو » ، والجنرال « الكسندر دوماس » الى الضواحي لمحاولة منع أهلها من الانضمام الى الثوار والانحياز الى الثورة ، وقد نجحت القوات الفرنسية فى صد جموع كثيرة ، وحالت بينها وبين العاصمة .

هذه هى الترتيبات التى اتخذها نابليون فى مساء اليوم الاول ليستعد لمواجهة الثورة فى يومها الاول ، وانقضى الليل فى هدوء والجانبان مستعدان للغد ، الفرنسيون ينصبون مدافعهم ، وينفذون أوامر نابليون ويصدون الاهالى القادمين من الضواحي ، ويمنعونهم من دخول المدينة ويحولون بينهم وبين الانضمام الى الثوار ، وبذلك يكون نابليون قد نجح فى عزل الثورة وحصرها ، وفى تحديد الثوار ليكونوا أهل القاهرة وحدهم ، ولو أن عددا من أهالى الضواحي نجح برغم هذه الاجراءات فى التسلل والوصول الى داخل القاهرة لان أبواب المدينة كانت ما زالت فى أيدي المصريين فكانوا يفتحونها ويدخلون الى المدينة من يشاءون ، والثوار سار بعضهم فى الليل الى القرى المجاورة يدعون الناس للانضمام للثورة ، وأهالى المناطق القريبة والضواحي يتوافدون على المدينة وينضمون الى الثوار .

ثم بدأ يوم ٢٢ من أكتوبر والجماهير تملأ الشوارع وصيحاتهم تشق الفضاء الى السماء وبدأ الاصطدام . . . فوجه نابليون قوات كافية

الى كل جماعة من الثوار للتغلب عليهم ، وخرجت جموع من الثوار تقدر ما بين ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ من باب الفتوح متجهة الى المرتفعات التي نصبت فوقها المدافع بقصد احتلالها والاستيلاء على المدافع ، فصدتهم القوات الفرنسية ، وفرقت شملهم ، وهاجم بعض الثوار كتيبة الفرسان التي كانت تحتل مدخل الحارة الموصلة الى ميدان الازبكية ، وتسلقوا المنازل والاسطح واحتلوا مسجدا يشرف على موقع الكتيبة واطلقوا النيران عليها ، وأوقعوا بها خسائر فادحة ، مما دفع الفرنسيين الى مهاجمة المسجد فحطموا أبوابه ، وقتلوا معظم الثوار في داخله .

٣ - كان الجنرال « سلكوسكى » ياور نابليون قد كلف ومعه كتيبة من حرس القائد العام بالتقدم الى طريق بلبينس لمنع الاهالى من دخول القاهرة والانضمام الى الثوار ، وبعد أن أتم مهمته عاد الى القاهرة ، وعند باب النصر تلقاه الثوار وحالوا بينه وبين دخول المدينة ، فأراد أن يشق لنفسه طريقا وسطهم فوقع بينه وبينهم صدام مسلح سقط في أثنائه من فوق جواده ، وهجم عليه الثوار وقتلوه مما أحزن نابليون فقد كان هذا الضابط مقربا الى قلبه وعلى جانب من الحلم والذكاء والمقدرة .

٤ - تجمع الثوار فى اليوم الثانى فى الازهر ٠٠٠ وكان أعضاء الديوان قد لجئوا الى نابليون يلتمسون منه أن يكف عن ضرب المدينة بالقنابل فطلب منهم أن يتصلوا بالثوار لالقاء السلاح وبالاخلاق الى السكينة وأمهلتهم فترة تكفى لهذا الاتصال ، وكلف الجنرال « دومارتان » قائد المدفعية أن يوقف الضرب حين صدور أوامر أخرى ، فاتجه أعضاء الديوان الى الازهر ، وأخذوا يصيحون الثوار بالكف عن القتال ، فلم يأبهوا لهم ، ولم يستمعوا لقولهم ، بل لقد أبى عليهم الثوار دخول الازهر ، مما جعلهم يفشلون فيما قدموا من أجله ، وكان الثوار يتوقعون ألا يفكر نابليون فى مهاجمته أو ضربه بالنسبة لما يعرفه عن مكانته الدينية فى نفوس المسلمين جميعا ، الا أن الجنرال « بون » بعث اليه يقول : « آن الدوريات أنبأتني بتجمعات كثيرة فى حى الازهر ومن الواجب التدرع بالشنودة لتفريق الجموع المسلحة التى تحتشد بهذا الحى ، وانى منتظر لاوامركم ، ومن رأى أن نميل بقواتنا على هذا المسجد ، ومن الصواب أن نزحف عليه من كل الجهات التى تفضى اليه » ٠٠٠ وبعد ظهر اليوم الثانى تلقى بون أوامر القائد العام : « عليكم أن تهاجموا لغوركم معسكر الثائرين ، وأن تضربوا الازهر بالمدافع ، ولتكن المدافع فى أصلح موقع ليكون الضرب أشد أثرا ، بلغوا الجنرال « دومارتان » أن يفعل مثل ذلك ، وأن يستولى على مدخل الازهر والمنازل الموصلة اليه ، وعليكم أن تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع ، والقائد العام يأمر بأن تقتلوا كل من تلقون فى الشوارع المسلحة ، وعليكم أن تقتلوا الاهالى ، وأن كل المنازل التى تلقى منتهى الحجارة تحرق حالا بالنار ، ويغض عن المنازل الاخسرى ، وعليكم أن تقتلوا كل من فى المسجد ، وأن تضعوا فيه حرسا من الجنود الاقوياء » .

وبينما الثائرون مجتمعون فى الازهر يعدون أنفسهم للقاء المنتظر سقطت من المقطم أول قنبلة وجهتها مدافعهم فانفجرت داخل المسجد ،

وكانت نذيرا بخطة عنيفة يلجأ اليها الفرنسيون ، وذكر ريبو أن اطلاق القنابل بدأ في الرابعة تماما وانهاالت على الازهر وفي المناطق المحيطة به كالفورية والفحامين ، وكانت أصوات القنابل مثيرة للنفوس ألقت الرعب فيها وانزعج الثوار وتولاهم الخوف ، فهذه هي المرة الاولى التي يواجهون بقذائف متواصلة ذات دوى هائل وأثر فظيع ، وفوجيء الاهالى فى ذات الوقت بكتائب الجنود تحتل الشوارع الموصلة الى الازهر حتى أصبحت الثورة والثوار محصورين بين نارين ، نار الجنود من حولهم ونار المدافع من فوقهم ، ووصف ريبو الآثار الناتجة عن طرب الازهر فقال : « أوشك الجامع الازهر أن يتداعى من شدة الضرب ، فيدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه ، وأصبح الحى المجاور للازهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يرى فيه الا بيوت مدمرة ودور محترقة ، ومات تحت الانقاض آلاف من السكان الآمنين ، وكان يسمع لهم أنين مزعج وصيحات مرعبة »

ووصف الجبرتي ضرب الازهر بالمدافع فقال : « تتابع الرمي من القلعة حتى تزعزعت الاركان ، وهدم مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ، ونزلت فى البيوت والوكالات وأصمت الأذان بطروتها الهائل ، » .

وعندما استمر الضرب طويلا متواصلا أحس الثوار أن الفرنسيين يفوقونهم فى قوة النيران ، وأن لديهم من المدافع ما يكفى لهدم المدينة ، وانزال الحسائر بها ، فوقع الاختلال فى صفوفهم ، وطالبوا بالتفاوض مع الفرنسيين فمنحوهم فرصة للهدنة ، واتفق بعد المفاوضة على القاء السلاح وتسليمه ورفع المتاريس ، وفتح الطريق للفرنسيين الى الجامع الازهر .

وهكذا تغلبت قوة الحديد والنار على شعب أعزل ينقصه السلاح ، وما أن استسلم الشعب ومال الى الهدوء حتى بدأت القوات الفرنسية تمارس نوعا من الانتقام العنيف واستهدف سكان القاهرة لموجة من الارهاب والقتل والتعذيب ، ونزلت بهم النوازل بخطوبها وأهوالها ، حتى أن ديتروا قدر فى يومياته عدد القتلى من الاهالى بما يتردد بين ٧٠٠-٨٠٠ فى حين أحصاهم نابليون فى تقرير له الى حكومة الادارة ، بما يتردد بين ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠ ، وقدر الجنرال « بليار » القتلى ب ٤٠٠٠ قتيل .

ماذا بعد الثورة ...

وبعد أن استسلم الثوار حدثت بعض الحوادث الهامة التى يجب أن نشير اليها بعد أن انتهينا من حديث الثورة لان هذه الحوادث كانت ذات أثر هام فى حالة البلاد فى هذه الآونة ...

١ - يتضح لكل مطلع على حوادث الثورة الشعبية ضد الفرنسيين فى أكتوبر ١٧٩٨ أن الفرنسيين استخدموا كل وسائل القسوة والارهاب والعنف حتى يقضوا على الثورة فكتلوا مدافعهم وقواتهم ، واستخدموها استخداما وحشيا ضد شعب مسالم أعزل كانت غلظته من وجهة نظرهم أنه قام ليدافع عن نفسه وعن حريته وسيادته ، فلما انتهت الثورة لم يحسب الفرنسيون حسابا للقلوب المجروحة ، ولم يحاولوا اجتذابها اليهم

كما أن الشعب لم يتس ما اتخذته الفرنسيون صده من وسائل التعذيب والارهاب ، ولهذا كانت الثورة المصرية في القاهرة من أهم الدوافع والأسباب التي باعدت بين الفرنسيين والمصريين ، وكان هذا البعد معولا تهدمت به كل آمال نابليون في مصر .

ولقد أدى الى زيادة الجفاء بين أهل البلاد والفرنسيين ما ارتكبه هؤلاء بعد تسليم المدينة وعودة الهدوء والسكينة اليها من ضروب التنكيل والانتقام ، فقد انتهكوا حرمة الأزهر كما روى الجبرتي ، وهم راكبون الخيل ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا في الأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين ، والمكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأواني والقصاع ، والودائع المخبأة بالدواليب والخزانات ، ودشنتوا الكتب والمصاحف ، على الأرض وطرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وكسروا أوانيها ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ، ومن ثيابه أخرجوه ، وقد وصف الشيخ عبد الله الشرقاوى في كتابه تحفة الناظرين ما حدث في الأزهر : ان الفرنسيين قتلوا من علماء مصر ثلاثة عشر عالما ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ، ومكثوا فيه يوما وبعض الليلة التالية ، وقتلوا فيه بعض العلماء ، ونهبوا أموالا كثيرة ، وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا يدخله ، فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ، ونهبوا أكثر البيوت التي حول الجامع ودشنتوا الكتب التي في الخزائن يعتقدون أن بها أموالا وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتباً ومصاحف نفيسة .

٢ - اندفع الجنود الفرنسيون في الأحياء المجاورة للأزهر وأخذوا ينهبون بيوتها بحجة التفتيش عن السلاح ، واستخدموا كل الفظائع ، حتى أن الناس هاجروا دورهم واختاروا السلامة والنجاة ، بينما أخذ الفرنسيون يتسكعون في الأسواق والشوارع إذا مر بهم أحد فتشوه ، وأخذوا مامعه ، وربما قتلوه وأخذوا يقبضون على الناس بحجة أن لديهم سلاحا ، أو بحجة أنهم اشتركوا في الثورة ، مما أوجد جوا من الفزع في المدينة فكثر الوشايات وراجت الدسائس ، وتعددت المظالم واستبيحت الحرمات ، وسجن الأبرياء ، وذاق الناس الأذى والهوان ألوانا وأنواعا . وقتل الكثيرون ، وفي هذا المعنى يقول الجبروتي « انتدب «برتلمى» الرومى للعسس على من حمل السلاح أو اختلس ، وبث أعوانه في الجهات يتجسسون في الطرقات فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، فيحكم فيهم بمراده ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ويركب في موكبه ويسير ، وهم موثقون بين يديه بالحبال ، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال فيودعونهم السجون ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن آلات السلاح والحرب . . . وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الأغا (يقصد مصطفى أغا الذي عينه الفرنسيون محافظا للمدينة) وتجبر في أفعاله وطغى ، وكثير من الناس ذبحوهم وفي بحر النيل قذفوهم ، ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله »

٣ - أصدر الجنرال «برتييه» رئيس أركان حرب تعليمات مشددة الى ضباطه وجنوده ، يأمروهم بالقسوة والحزم ، ومن ذلك مثلا : أمر الى الجنرال «بون» بهدم الجامع الأكبر ليلا اذا أمكن ، ورفع الحواجز والابواب التي كانت تسد الشوارع ، بهذه الأوامر جاوز الفرنسيون الغرض من اخماد الثورة الى الانتقام والارهاب ، وبلغت بهم الجرأة أن يفكروا في هدم الجامع الأكبر الذي يعتبر منارا للإسلام والمسلمين جميعا ، ومن الأوامر التي أصدرها الجنرال «برتييه» تعليماته الى قومندان المدينة : بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أخذوا معهم اسلحة وعليكم ارسال الجثث في هذه الليلة الى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة واغراقها في النهر .

ولقد قام الفرنسيون باعدام كثير من الاهالي في القلعة دون أن توجه اليهم تهمة ، ودون أن يقدموا لمحاكمة ، ومن عجب أن عمليات القتل والتعذيب لم تكن مقصورة على القاهرة وحدها وانما تعدتها الى الاقاليم كما أن الفرنسيين لم تأخذهم رحمة بالنساء فقتلوا كثيرا منهن ، ويقول المسيو (بورين) سكرتير نابليون الخاص في مذكراته : سيق المسجونون الى القلعة وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية باعدام اثني عشر سجينا كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل ، واستمر ذلك ليالى عدة .

وكتب الجنرال «برتييه» الى الجنرال «دوجا» قومندان المنصورة يقول له : لقد نكلنا بالثائرين في مذبحه رهيبه ، فسادت السكينة وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف .

وكتب نابليون الى قومندان الشرقية الجنرال «رينيه» يقول له : عادت السكينة الى القاهرة وفقد الثائرون نحو ألفي قتيل ، وفي كل ليلة نقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الاهالي وأظن أن هذا سيكون درسا قاسيا لهم .

٤ - ألقى نابليون القبض على أعضاء لجنة الثورة وعلى زعمائها من المشايخ ، وهؤلاء لهم مكانتهم في نفوس الشعب ، الذي ينظر اليهم نظرة الاعجاب والتقدير ، واليهم ألقى مقاليد أموره ، وهم الذين وكلوا عنه للدفاع عن مصالحه ، ولم يهتم نابليون بهذه المكانة التي كانت للعلماء فارتكب خطأ كبيرا حين قبض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة ، وحوكم هؤلاء وحكم عليهم بالاعدام ، ومن هؤلاء الشيخ اسماعيل البراوي والشيخ يوسف المصيلحي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ سليمان الجوسقي ، وجاء في مذكرات نابليون : ان رجال الشرطة قبضوا على ثمانين من أعضاء لجنة الثورة وسجنوهم بالقلعة وان أعضاء لجنة الثورة أخذوا بذنبيهم ، وقد ثبتت ادانتهم فأصدر المجلس العسكري في يوم ٢٤ من أكتوبر ١٧٩٨ قرارا باعدامهم جميعا ونفذ فيهم الحكم .

وكان ممن ألقى القبض عليهم ابراهيم افندي كاتب جمر ك البهار ، واتهم بأنه كان يثير الجموع ويوزع عليهم السلاح ، وانه كان يؤوى

الكثيرين من الثوار ، ومن عجب أن نابليون أفرج عنه لشفاعة الشيخ محمد المهدي والمسيو «بوسليج» مدير الشئون المالية ، أما باقى الزعماء والشيوخ فقد جرى بهم الى القلعة تحت الحراسة المشددة فى ٣ من نوفمبر ، ونلى عليهم حكم الاعدام ، وأعدموا رميا بالرصاص ، وتولى تنفيذ الحكم فيهم « برتلمى » الرومى ويقول الجبرتنى انهم بعد أن قتلوهم ألقوا بهم من فوق السور خلف القلعة وان أحدا لم يعلم بالمكان الذى دفنوا فيه وذكر الشيخ الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين : أن الفرنسيين قتلوا من علماء مصر ثلاثة عشر عالما .

٥ - أصدر نابليون أوامره الى جنوده بأن يكونوا على أهبة الاستعداد فقد كان يتوقع أن تعود الثورة من جديد ومن أجل هذا نجده يجمع جنوده فى حى واحد ، لانه أصبح لا يأمن عليهم من الاهالى ، كما أنه أمر بإخلاء المناطق المسكونة حول ميدان الازبكية ، حيث كان يقع معسكره ليسكنها جنوده ورجاله ، وفى ٢٧ من اكتوبر أصدر أمرا اذاعه بين الجنود ، أمرهم فيه ألا يبتعدوا عن معسكراتهم وقال فيه : لقد قتل بعض الفرنسيين فى يوم الثورة وهؤلاء من الذين لم يتبعوا الاوامر الصادرة اليهم ، وابتعدوا عن معسكراتهم غير حاملين سلاحا ، فعلى رؤساء الفرق ورؤساء الاقسام الادارية مراقبة الجنود لكيلا يبتعدوا ولا يضعوا عنهم السلاح ، وعليهم أن يراقبوا اتباع النظام والاوامر العسكرية بين الجنود ، وعلى كل فرنى أن يكون شاكى السلاح ، تام الذخيرة ، واذا قامت قائمة فى المدينة فعلى كل فرد أن يلحق بفرقة أو الادارة التى يتبعها منتظرا ما يؤمر به ، ولا يمنع الأمن من الحذر ، ولتكونوا فى وقت السكينة معدين لوقت الهياج لان عدم الاغراق فى الاطمئنان أدعى للاطمئنان .

وأصدر نابليون أمرا بأن يسترجع الجنود والضباط كل أسلحتهم التى كانوا قد بعثوا بها الى صناع الأسلحة الوطنيين لاصلاحها وحظر عليهم اصلاح الأسلحة عندهم .

وتنفذا لهذه الاوامر حمل الجنود سلاحهم ، وعاشوا حياتهم فى خوف من ثورة جديدة ، وعاملوا الاهالى بعنف وقسوة وعاشت القاهرة فى ظل ارهاب ، فلا عدل ولا أمن ولا طمأنينة .

٦ - بعد أن انتهى نابليون من اخماد ثورة القاهرة واعتقال من أراد اعتقاله واعدام من شاء له أن يعدمه ، أبطل الديوان ، ومنع اجتماعه ولعله بذلك يكون قد أثبت أن الثقة بينه وبين المصريين قد انتزعت ولم يغد لها وجود ، وان ثورة القاهرة كانت هوة عميقة باعدت بين الأمة المصرية وبين الجيش الفرنسى .

٧ - كان من نتائج فقدان الثقة وعدم الاطمئنان الى المصريين وتوقع ثورتهم من جديد ، ان اتجه نابليون الى تحصين المدينة لجعلها بمأمن من وقوع ثورة أخرى ، واتجه أول ما اتجه فى هذا السبيل الى اقامة القلاع على التلال المحيطة بالمدينة ونصب فيها المدافع ، وهدم كثيرا من الأماكن فى ضواحي القاهرة كالجزيرة ومصر القديمة وشبرا ، وحصن هذه الأماكن تحصينا منيعا ، وأقام المعقل فى شوارع القاهرة ، وأصلح قلعة

الجبل ، وهدم مساجد متعددة ، وقطع بعضا من النخيل والأشجار
ليستخدم أخشابها في اقامة الحصون والمتاريس ، كما هدم دورا كثيرة ،
وانتزع نوافذها وأبوابها وأخذ أخشابها لتساهم في بناء الحصون ،
وأصبحت القاهرة مكانا محاطا بسلسلة من القلاع والاستحكامات ، ومن
أهم هذه القلاع « قلعة ديبوى » أقيمت قرب القلعة ، ليتيسر منها ضرب
الأزهر اذا فكر المصريون في الاجتماع بساحته مرة أخرى ، وقلعة
سلكوسكى أنشئت في جامع الظاهر (ميدان الظاهر) واستخدمت مئذنة
الجامع كنقطة استطلاع ، وأقيمت بداخله مساكن وأمكنة تسع ٦٠٠ فارس
بخيولهم ، وقلعة كامان ، وقلعة الناصرية ، وقلعة مويرور (فى حى
طولون) .

وحصن نابليون جزيرة الروضة ، ووضع فى كل طرف من أطرافها
بعض المدافع ، وحصن شاطئ النيل فى مقابل الجزيرة ، وأقام فى فم الخليج
قلعة حصينة سميت قلعة المجراه (السبع سواقي) وجعل من قصر ابراهيم
بك (القصر العينى الآن) مستشفى عسكريا يسع ١٠٠٠ مريض وجريح ،
وحصن نابليون الجزيرة وجعلها مركزا للمدفعية ومخازنها ومستودعا
للدخائر .

وبلغ عدد القلاع التى أنشأها الفرنسيون تسع عشرة قلعة ، سميت
كلها بأسماء الضباط والجنود الذين لقوا حتفهم فى خلال الحملة واقامة
هذا العدد من القلاع يدل دلالة قاطعة على مدى الفزع الذى أصاب الفرنسيين
خلال ثورة القاهرة ، ويدل ايضا على مدى المقاومة العنيفة التى لقيها
الفرنسيون من المصريين فى عهد الاحتلال ، ولقد جاء ذكر هذه الحصون
والقلاع فى مذكرات الكولونيل «ديتروا» فقال : ان الغرض من اقامة
هذه الحصون هو استهداف مدينه القاهرة ، اذا قامت ثورة فيها ، وقد
وصل بينها بطرق خارجة عن المدينة ولما كانت نية القائد العام متجهة
الى جعل المستشفيات ومخازن الجيش بمعزل عن المدينة ، وأسسكان
الفرنسيين فى حى من أحيائها ، فمن المحقق اننا نستطيع أن نتغلب على
كل هياج فى القاهرة .

٨ - ذكرنا فى خلال الحديث عن اليوم الثانى للثورة الشعبية فى
القاهرة ضد الفرنسيين أن نابليون بعث ببعض الجنرالات مثل الجنرال
«لان» والجنرال «فو» الى ضواحي القاهرة ليحولوا بين سكانها وبين
الانضمام الى الثورة فى القاهرة ، وذكرنا أيضا أن هؤلاء نجحوا فى صد
جموع كثيرة من الاهالى كانوا فى طريقهم الى القاهرة للانضمام الى الثوار ،
كما ذكرنا أن نابليون تمكن من عزل الثورة فى المدينة وعزلها عن البلاد
المجاورة ، ولا شك فى أن الثورة التى شبت فى القاهرة فى اكتوبر كان
لها صدى فى سائر البلاد ، وأن الأسباب التى دعت الى هذه الثورة كانت
قد أدركت فى سائر الاقاليم حتى أن البلاد والضواحي القريبة من
القاهرة اشتركت فعلا فى الثورة ، وقدمت اليها الرجال والعتاد ، فلما
انتهت الثورة واستسلم الاهالى تحت ضغط القوة ، تعرضت القرى
والبلاد المجاورة للانتقام من جانب الفرنسيين ، فقد أمر نابليون بعض
قواته بالانتقال الى القرى التى اشتركت فى الثورة للبحث عن الاعيان

والمشايع الذين ساهموا فى اشعال نيران الثورة واتجهت قوات نابليون الى القرى المجاورة ، واستدعى الضباط الفرنسيون العمدة وكلفوهم تسليم الرسائل التى وردت اليهم ليلة الثورة ، والتى كانت تحمل اليهم دعوة للانضمام الى صفوف الثائرين ، وألقت القوات الفرنسية القبض على جماعة من الأعيان ومشايخ البلاد بتهمة الاشتراك فى الثورة وجاءت بهم الى القاهرة ، وأعدم بعضهم ، وفى هذا الصدد يقول الجبرتي : ان كبير الفرنسيين الذى بناحية قليوب حضر وبصحبته سليمان الشواربى شيخ الناحية وكبيرها فلما حضر حبسوه بالقلعة وقيل إنهم عثروا على مكتوب أرسله وقت الفتنة (يقصد ثورة القاهرة) الى سرياقوس لينهض أهل البلاد وقال نابليون فى رسالة الى الجنرال ليكلرك : انهم اعتقلوا الشواربى لانه اتضح انه كان يحرض أهالى البلاد المجاورة للانضمام الى الثورة ، وقال الجبرتي : انهم قتلوا الشيخ سليمان الشواربى ومعه ثلاثة من عرب الشرقية وقطعوا رؤوسهم بالرماية .

وما حدث مع الشيخ الشواربى حدث أيضا مع زعماء القطا والنجيلة وكفر غرين ، وكانت تهمة هذه القرى أنها اطلقت الرصاص على السفن الفرنسية الجارية فى النيل ، وهددت الملاحة بين القاهرة والرحمانية ، وذكرت جريدة كورييه دى لييجيت ان الجنرال «لان» هاجم القطا فى نوفمبر ١٧٩٨ ومعه قوة من ٤٠٠ جندي ، وأحرق القرية بعد أن هاجر منها أهلها

٩- كان من أهم ما أعقب الثورة الشعبية فى القاهرة ضد الفرنسيين أن الفرنسيين أمروا بتأليف كتيبة من الاروام المقيمين فى القاهرة وفى رشيد وفى دمياط ، وكلفت هذه الكتيبة حراسة السفن فى النيل ، فان هؤلاء الاروام أعلنوا ولاءهم للجيش الفرنسى ، وأراد نابليون أن يستغل هذا الولاء لحسابه فيوفر بعض الجنود الفرنسيين لاستخدامهم فى مهام أخرى أكثر أهمية ، ولعل نابليون حين فكر فى انشاء هذه الكتيبة كانت قد ازعجته حوادث مهاجمة السفن الفرنسية التى تعددت وكثرت من جانب المصريين ، فان جموع الاهالى كانت تهاجم الاسطول الفرنسى بصفة مستمرة، وتطلق عليه الرصاص من الشايطين ، وحدث أن جنحت سفينة تقل المسيو «سوسى» مدير مهمات الجيش عند كوم شريك ، ومعه عمدة من ضباط «أركان حرب» فهاجم عليه الاهالى وقتلوا بعض الركاب ، وأصيب سوسى فى ذراعه اصابة خطيرة كما جرح قبطان السفينة والضابط لاكوى . وحدث أيضا أن أرسل نابليون ياوره الكابتن جوليان برسالة الى الجنرال كليبر فى الاسكندرية والجنرال برويز فى «أبو قير» فجنحت به السفينة على الشاطئ الغربى من فرع رشيد عند قرية علقام (مركز كوم حمادة) فهاجم الاهالى السفينة وقتلوا من عليها .

واتخذ نابليون قرارا آخر بخلاف تأليف كتيبة من الاروام لحماية الاسطول والمواصلات النيلية ، وكان القرار يقضى بانشاء أسطول نيلى مسلح ، ألفه من السفن الصغيرة الحربية التى نجت من موقعة «أبو قير» ومن المراكب المصرية التى استولى عليها الفرنسيون وأمدوها بالمدافع . وأمر نابليون بان تكون قواعد هذا الاسطول فى بولاق ومصر القديمة ورشيد ودمياط ، وفى نوفمبر ١٧٩٨ سارت دوريات مسلحة من السفن

الحربية فى فرعى النيل ، تقوم كل منها بحراسة قطاع معين ، فمثلا قسم فرع رشيد ثلاث قطاعات ما بين رشيد والرحمانية ، ثم ما بين الرحمانية والطراية ، ثم ما بين الطراية وبولاق ، وكذلك فرع دمياط فقد قسم قطاعات ثلاثة ، من دمياط الى المنصورة ، ومن المنصورة الى ميت غمر ، ثم من هذه الى بولاق ، وكانت الدوريات المكلفة بالحراسة تتكون من ثلاث أو أربع سفن مسلحة يقودها ضابط بحرى ، كان عليه أن يمر بسفنه فى القطاع المحدد ، وان يكتب الى القيادة العامة بتقارير مفصلة

ولا ننسى ان نشر الى عدة سفن مسلحة حددت لحماية مواصلات الجنرال ديزيه فى الصعيد ، ولا يفوتنا ان نذكر بالفخر ان الفرنسيين ارادوا استخدام النوتية المصريين فى مراكبهم فأمتنع هؤلاء ، ورفضوا ان يكونوا فى خدمة محتل لبلادهم ، ولقى الفرنسيون الجهد فى هذا المجال ، وحاولوا بوسائل الاغراء والتهديد أن يصلوا الى بغيتهم ، ولكنهم قوبلوا بصد عجيب فقد أبت وطنية المصريين أن تسمح لبعض منهم بخدمة الفرنسيين .

١٠ - بعد أن هدأت الامور فى البلاد ، وعاد الناس الى بيوتهم وتعرضت البلاد لموجة الارهاب العنيفة من جانب الفرنسيين ، رأى كبار العلماء أن يتدخلوا فى الامر ، فكتبوا الى نابليون يطلبون منه أن يخفف من وسائل التهديد والتعذيب رغبة فى أن تعود الطمأنينة الى النفوس ، فطالب منهم نابليون أن ينشروا بيانا على الناس ، يدعوهم الى الاخلاص الى السكينة فاستجاب له العلماء ، وأصدروا بيانا فى ٢٤ من أكتوبر ، طالبوا فيه الاهالى « عليكم ألا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ، ولا تتبعوا الاشرار ، ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين يقرءون العواقب ، لاجل أن تحفظوا اوطانكم ، وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم ... ونصيحتنا لكم الا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، واشتغلوا بأسباب معيشتكم ، وأمور دينكم . وادفعوا الخراج الذى عليكم .

وتلقت جموع الشعب هذا البيان بالصند وعدم القبول ، ولعل مبعث ذلك أن الشعب كان يقاسى بمرارة فظاعة الجرائم الفرنسية ، هذا فوق أن الانباء قد تواترت بأن سلطان تركيا يعد جيشا لاجراج الفرنسيين من مصر .

واستدعى نابليون العلماء مرة ثانية وأمرهم باذاعة بيان آخر يوزع على الاقاليم ، لتهدئة خواطر الاهالى ، ولنفى ما انتشر بينهم من دعايات واشاعات ، وأصدر العلماء بيانا آخر فى نوفمبر ١٧٩٨ ، جاء فيه أن المالك هم الذين ينشرون هذه الاشاعات ، رغبة فى إثارة القلاقل بالبلاد بعد أن طردوا منها ، وطالب البيان المصريين « ننصحكم أيها المقيمون بالاقاليم المصرية ألا تحركوا الفتن ، ولا الشرور بين البرية ، ولا تعارضوا العسكر الفرنسية بشيء من انواع الاذية ، فيحصل لكم الضرر والهلاك ، ولا تسمعوا كلام المفسدين ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، وانما عليكم دفع الخراج ، لتكونوا بأوطانكم سالمين ، وعلى اموالكم وعيالكم امنين مطمئنين ... » .

والمتتبع للبيانات التي أصدرها هذا الفريق من العلماء يلمس منها أن هؤلاء العلماء هم أعضاء الديوان الذي أبطله نابليون ، ولم يكونوا من الزعماء الوطنيين الذين كانوا يثورون ضد الفرنسيين والذين تولوا قيادته في ثورته ، والذين ضحى بعضهم بالروح من أجل حرية البلاد واستقلالها وسيادة أهلها وواضح من هذه البيانات أنها كانت تدعو إلى السكينة ومصالحة المعتدين ، وأنها كانت مملوءة نفاقا وسخفا ، ورغبة وضيعة في استرضاء نابليون فمن ذلك مثلا ما جاء بالبيان الأول ... لأنه (أى نابليون) رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة الفقراء والمساكين » ... ومن ذلك أيضا ما جاء في البيان الثاني « .. لان حضرة سارى عسكر الكبير أمير جيوش بوناپرت ، اتفق معنا على أنه لا ينازع أحدا في دين الاسلام ، ولا يعارض فيما شرعه الله لنا من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ، ويقتصر على أخذ الخراج ، ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم » .

هذا المديح الذي كاله هؤلاء العلماء من أعضاء الديوان لنابليون لا يستقيم أبدا مع حالة الارهاب التي عاشها الشعب في ظل نابليون . فقد عاش الشعب فترة مظلمة ساد فيها الظلم والتعذيب ، والقتل والسجن ، والتخريب والتدمير ، فترة عنيفة في حياة الشعب لا يزيل عنفها الكلام المعسول أو الوعد الجميل أو الالفاظ البراقة التي تختفي بين حروفها الرغبة في استعباد البلاد واحتلالها واذلال أهلها .

١١ - قلنا ان نابليون أمر بتعطيل الديوان عقابا لأهل القاهرة على قيامهم بالثورة ، وفي ٢١ من ديسمبر ١٧٩٨ أعلن نابليون في منشور اذاعه في البلاد أنه قرر إعادة الديوان ، وجاء فيه « من أمير الجيوش الفرنسية ، خطابا إلى جميع أهالي مصر الخاص والعام ، نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالية من المعرفة وإدراك العواقب ، أوقعوا الفتن والشروع بين القاطنين بمصر ، فأهملهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ، والبارى سبحانه وتعالى أمرني بالشفقة والرحمة على العباد ، فامتثلت أمره وصرت رحيمًا بكم ، شفيقا عليكم ، لكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد ، بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولأجل ذلك أبطلت الديوان الذي كنت قد رتبته لنظام البلد وصلاح أحوالكم من مدة شهرين ، والآن توجه خاطرنا إلى ترتيب الديوان كما كان ... »

والمطلع على هذا البيان يلمس فيه :

- (١) محاولة نابليون اظهار سطوته وقسوته « ان الذي يعاديني ويخاصمني لا يجد ملجأ مخلصا ينجيه مني في هذا العالم »
- (ب) ادعاء نابليون اطلاعه على الغيب « واعلموا اني أقدر على اظهار ما في نفس كل واحد منكم : لانى اعرف أحوال الشخص ، وما انطوى عليه ، بمجرد ما اراه وان كنت لا اتكلم ، ولا انطق بالذى عنده ... » .

(ج) الرجاء احتلال مصر الى أسباب وردت فى القرآن والى رغبة
سببهاوية « قدر فى الازل انى اגיע من الغرب الى ارض
مصر . . . واجراء الامر الذى امرت به ولا يشك العاقل
ان هذا كله بتقدير الله واراדתه وقضائه ، واعلموا أيضا أن
القرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل .
وكلام الله فى كتابه صدق وحق لا يتخلف . .

وبعد ان أصدر نابليون منشوره هذا وضع نظاما جديدا للديوان
فى حدود أكثر اتساعا من حدود الديوان القديم اذ جعله مؤلفا من
هيئتين . . . الديوان العمومى أو الديوان الكبير ، والديوان الخصوصى
. . . ويتألف الديوان العمومى من ستين عضوا معينين ، وهؤلاء ينتخبون
من بينهم رئيسا للديوان ، واثنين من السكرتيرين ، واجتمع الديوان
العمومى فى ٢٧ من ديسمبر ١٧٩٨ ، وكان يمثل مختلف هيئات الامة
وطبقاتها (١٤ من العلماء والمشايخ - مثل الشيخ البكرى ، والشيخ
المهدى ، والفيومى ، والدمنهورى وغيرهم و ٢٦ من التجار والصناع -
مثل السيد العقاد المحروفي والحاج مصطفى شيخ العقادين والسيد
محمد شيخ العطارين والحاج المسيرى من تجار الاقمشة والحاج
سالم من الجواهرجية و ١١ من العسكريين ، مثل يوسف شوربجى ،
وعلى كخية ومصطفى الشركسى ، و ٢ من مشايخ الاخطاط ، ، كشيخ
العطوف وشيخ جزارى الحسينية ، ٤ من الاقباط ، كالمعلم لطف الله
المصرى والشيخ ابراهيم مقار ، ٣ من الأجانب هم المسيو ولمار ، والمسيو
كاف والمسيو بودوف .

ويلاحظ أن الديوان كما جاء فى أمر تشكيله « يتألف من هيئة
تكون ممثلة تمام التمثيل لسكان القاهرة بحيث اذا خاطبت الحكومة
الديوان تتحقق انها تواجه فيه الراى العام » .

ويتكون الديوان الخصوصى من ١٤ عضوا من أعضاء الديوان
العام يجتمعون « للنظر فى مصالح الناس ، وتوفير أسباب السعادة
والرفاهية لهم ، ومراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية » ويكون لهذا
الديوان رئيس وكاتم سر ، وانتخب الشيخ الشرقاوى رئيسا له ،
والشيخ المهدى سكرتيرا أو كاتما للسر ، وكان الديوان الخصوصى يمثل
هيئة العلماء والتجار ، والاقباط ، ومندوبين عن السوريين ، وثلاثة عن
الاوربيين ، وأصدر الديوان الخصوصى عقب تشكيله فى يناير ١٧٩٩
بيانا أعلن فيه « ان نابليون قد عفا عن الثوار ، وأعاد الديوان » لاجل
قضاء حوائج الرعايا ، وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام
وتنظيمها على اكمل نظام واحكام .

١٢ - فى يناير ١٧٩٩ احتل أحمد باشا الجزار والى عكا قلعة
العريش ، وكان هذا الاحتلال بداية لزحف الجيش العثمانى على مصر ،
ورأى نابليون أن يتقدم هو لمواجهة الجيش الزاحف والقضاء عليه ،
ثم احتلال سورية كخطوة لمواصلة زحفه الى الهند ، وأعد نابليون
العدة للحملة الفرنسية على سورية ، ولكنه كان يعلم أن نفوس الاهالى
فى القاهرة متحفزة للهباج ، متربصة للثورة ، وأن قيام الثورة فى أثناء

غيابه عن القاهرة وشغله بحملته على سورية سيؤدي إلى قطع خط الرجعة على جيشه ، ولهذا قرر أن يتخذ من الخطوات ما يسمح بمنع وقوع أية ثورة فأمر بتقوية قلاع القاهرة ، واحكام الاتصال بينها ، وامدادها بالمدافع والذخائر والمهمات ، وكلف الجنرال كافريللي ودومارتان الاتصال به ، وكتابة تقرير له عن مركز الدفاع عن القاهرة في حالة نشوب ثورة ، وعين الجنرال دوجا قومندان دمياط حاكما للقاهرة ، والوجه البحرى ووكيلا عنه في غيابه ووحيد القيادة في المديرية فجعل مديرية الغربية والمنصورة تحت قيادة الجنرال فوجبير ، ومديريتي بنى سويف والفيوم تحت قيادة الجنرال زايونشك، والبحيرة ورشيد تحت قيادة الجنرال مارمون ، وعين الجنرال وستنج قومنداناً للقاهرة واختار نابليون أربعة من أعضاء الديوان هم الشيخ الفيومى والشيخ الصاوى والشيخ العريشى والشيخ الدواخلى وكذلك اختار ابراهيم افندى أدهم قاضى القضاة ومصطفى بك نائب الوالى لمصاحبته في أثناء سيره الى سورية ولعله أراد بهذا الاختيار أمرين .

الاول : ان يفهم الشعب في مصر أن الحملة على سورية تمت بناء على تفاهم مع أعضاء الديوان

الثانى : أن يكون هؤلاء رسل تفاهم بينه وبين الشعب العربى في سورية ، لما لعلماء الازهر من نفوذ ومقام فى سائر أنحاء الشرق .

واجتمع نابليون قبل مغادرته القاهرة بأعضاء الديوان الخصوصى ، وأوضح لهم أن الغرض من الحملة على سورية هو محاربة المماليك وفتح طريق التجارة بين البلدين « ان الجنود الفرنسية قتلتوا المماليك الفارين بالصعيد ، وأجلوا باقيهم الى أقصى الصعيد ، وأنهم متوجهون الى الفرقة الاخرى بناحية غزة ، فيقصونهم ويمهدون البلاد الشامية لأجل سلوك الطريق ومشى القوافل والتجارات برا وبحرا ، لعمار القطر وصلاح الاحوال » ، ودعاهم نابليون الى مراعاة حالة البلاد في أثناء غيابه ، وأصدر أعضاء الديوان منشورا الى الأهالى يعلنون فيه أن نابليون سيفيب ثلاثين يوما يحارب خلالها ابراهيم بك والمماليك الهاربين معه .

واجتمع نابليون بالجنرال دوجا ورسم له سياسته الداخلية خلال فترة غيابه وتقوم هذه السياسة على أساس :

(ا) اظهار الاحترام والتقدير لأعضاء الديوان .

(ب) الاستعانة بأعضاء الديوان لتهدئة الخواطر اذا لزم الأمر .

(ج) اتخاذ الاحتياطات العسكرية فى المدينة .

(د) عدم ضرب المدينة بالمدافع الا فى حالة الضرورة القصوى « يجب الا تأمر بضرب المدينة بالمدافع من طابية ديوى والقلعة الا حين تعجزك الوسائل كلها فانك لتعلم مبلغ الأثر السيئ الذى يحدثه هذا العمل فى مصر وفى سائر أنحاء الشرق » .

(هـ) التودد الى المصريين في مناسباتهم الدينية واظهار مشاعر الفرنسيين في هذه المناسبات في صورة تبدو واضحة للاهالي (١) وتودد نابليون كثيرا الى عامة الناس ، حتى أنه قبل سفره بأيام أمر بأن يكون الاحتفال برؤية رمضان فخما عظيما واشترك هو فيه ، وجعل الاحتفال يستمر أربعة أيام .

وما دمنّا نتحدث عن محاولات نابليون في اجتذاب قلوب المصريين فلا بد لنا أن نشير الى شيء هام ، وقع في يافا بالنسبة للمصريين الذين كانوا في المدينة عند استيلاء نابليون عليها فثبت من التاريخ أنه قتل اهله ومن وجد بها من العثمانيين ، وأطلق لجنوده العنان فارتكبوا فظائع تقشعر منها الابدان ، وكان يوجد بالمدينة ٤٠٠ من المصريين ، كانوا قد خرجوا اليها بعد انتصار نابليون في معركة الاهرام وكان من بينهم عمر مكرم نقيب الاشراف فجمع نابليون المصريين وحال بينهم وبين جنوده ، فلم يقتل مصري واحد ، واکرمهم نابليون وبعث بهم جميعا الى مصر ، وفي ذلك قال الجبرتي : « ان السيد عمر أفندي نقيب الاشراف حضر الى دمياط وصحبته جماعة من أفندية الروزنامة وغيرهم ، وذلك أنهم كانوا بقلعة يافا ، فلما حاصرها الفرنسيات ، وملكوا القلعة والبلد ، لم يتعرضوا للمصريين ، وطلبهم نابليون اليه وعاتبهم على نقلهم وخروجهم من مصر ، وأنزلهم في مركب ، وأرسلهم الى دمياط من البحر ، فحضر بعض الاعيان للملاقاته وركبوا معه بعد ان مكث هنيهة بزاوية على بك التي بساحل بولاق حتى وصل الى داره ، وتوجه في ثاني يوم مع الشيخ المهدي ، وقابل ساري عسكر ، فبش له ووعدته بخير ، ورد اليه بعض تعلقاته ، واستمر مقيما بداره ، والناس تغدو وتروح اليه كالعادة » .

ومما هو جدير بالذكر أن نابليون أراد وهو في يافا أن يلحق المصريين بجيشه ، ليقالوا تحت امرته ، ولينضموا في قتالهم للعثمانيين الى جانب الفرنسيين ، ولكن المصريين أبوا ذلك ، وهم أسرى بين يديه ، مما يؤكد شعور المصريين حيال نابليون ، فهم لم يتركوا فرصة الا وعبروا فيها عن مشاعرهم وعواطفهم تجاه الفرنسيين ، وعن رغبتهم الأكيدة في التخلص منهم ، وانقاذ بلادهم من حكمهم ، ولما فشل نابليون في مسعاه لم يفضب لما أبداه المصريون ، وانما بعث بهم الى بلادهم ، رغبة في اظهار حسن نواياه ناحية المصريين ، وكان يأمل أن يجتذب قلوبهم ، بإعادة هؤلاء الى ديارهم وذويهم ووطنهم .

(١) وفي ذلك قال الجبرتي وهو يصف حالة البلاد بعد غيبة نابليون خلال شهر رمضان ، وموقف الفرنسيين من الاهالي « صار الفرنسيات يدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار للافطار والسحور ويعملون لهم الولائم ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعاداتهم .. ويذهبون ويحضرون عندهم الموائد ويأكلون معهم في وقت الافطار ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذوهم » وقال الجبرتي أيضا انه لما جاء يوم العيد أطلق الفرنسيون المدافع وركب أكابر الفرنسيين وطاقوا على أعيان البلد وهنئوهم بالعيد .

الباب السادس
تجدد النضال الشعبي في الوجه البحري

كان تفوق الفرنسيين في العدد والعدة ، العامل الأول في فشل الثورات الشعبية المختلفة التي قامت في جميع أنحاء البلاد ، والمتتبع لهذه الثورات ، يجد أن الشعب المصري ، وقف وقفات بطولية مع أنه أعزل من السلاح ، لا يملك القوة المادية التي يستطيع بها مواجهة الفرنسيين ، وبرغم أن نابليون نجح في أن يسود السكون أنحاء البلاد ، إلا أن تحركه إلى سورية ، وابتعاد جزء كبير من جيشه عن البلاد ، شجع الثوار والوطنيين في مصر ، على الانتفاض من جديد ضد الفرنسيين .

وفي أواخر فبراير ١٧٩٩ بدأ هاتف الثورة يطوف بالنفوس ، وظهرت بوادرها في الشرقية حيث كان الفرنسيون يمرون بالمدن والقرى لمصادرة الجمال والحمير والماشية قوة وقهرا مما أثار النفوس . وبدأت تقع مصادمات اتسع نطاقها حتى شغل مناطق متعددة في الشرقية :

١ - في ٢٨ من فبراير ١٧٩٩ خرجت كتيبة من بلبيس كلفت بمصادرة حيوانات الحمل لخدمة الفرنسيين ، فلما وصلت هذه الكتيبة إلى بردين ، تجمع أهالي القرية وحملوا السلاح ، وقرروا الوقوف في وجه الفرنسيين ودعوا اخوانهم من أهالي القرى المجاورة للمساهمة والمعاونة وحاول قائد الكتيبة أن يفاوض شيخ البلد ، فرفض الأهالي مفاوضاته ، ورأى القائد الفرنسي أنه من المخاطرة مواجهة هذه الجموع الثائرة فعاد ادراجه وابلغ قومندان المديرية ، فعزز الكتيبة بقوة أخرى ، وعادت إلى بردين ، فوجدت الأهالي على أتم الاستعداد لمواجهةهم ، وحاول القائد دعوة شيخ البلد للتفاهم معه فأبى أن يسير إليه وذهب أربعة من الجنود إلى باب القرية ، فانهال عليهم الرصاص ، وبدأت معركة حامية الوطيس استمرت ساعتين . انهزم على أثرها الفرنسيون وولوا هاربين والأهالي يتعقبونهم ، حتى وصلوا بلبيس . وانتشر خبر الهزيمة في أنحاء الشرقية ، وانساب روح الثورة إلى جميع القرى ، واستقر الرأي العام على الزحف إلى بلبيس وطرد الفرنسيين منها ، فعهد الجنرال دوجا إلى الكولونيل ديرانتو أن ينتقم وأن يقضي على الثورة وأن يمنع انتشارها ، فسار هذا على رأس قوة كبيرة إلى بردين في ١٦ من مارس ، واستولى على المدينة وأضرم فيها النيران ، ثم تحرك في ١٧ إلى الزنكلون فوجد أهلها قد غادروها ، ولقد أشار الجنرال برتييه إلى حادثة بردين في كتابه « حروب نابليون في مصر » فقال : ثارت قرية بردين بمديرية الشرقية فسار إليها الكولونيل ديرانتو ، وهو ضابط ذو كفاية على رأس كتيبة من الجنود فأخمد ثورتها ، وأضرم النار فيها .

وحدث في هذه الاثناء ما يعرف باسم ثورة أمير الحج ، فقد أراد نابليون عند ارتحاله عن القاهرة أن يصحب معه القائد التركي

وبعض العلماء — كما سبق القول — وعند بليس تخلف هؤلاء ، واقاموا في القسرين ، ثم اعلنوا انهم لن يواصلوا التقدم مع نابليون ، وتولى امير الحج مصطفى بك الدعوة الى الثورة ضد الفرنسيين في منطقة الشرقية ، وامتدت دعوته الى مديرية الدقهلية ، وانضمت جموع كثيرة اليه فسار معه آلاف من الاهالى من كفور نجم الى دقادوس وميت غمر ، وكان الاهالى ينضمون اليه خلال تحركه ، وفي ٢٥ من مارس وصل تجاه ميت غمر وهناك التقى بمجموعة من المراكب الفرنسية كانت تسير من القاهرة في طريقها الى دمياط ، حاملة الذخائر والاقوات والامدادات للجيش الفرنسي في سورية . فهاجم مجموعة السفن ، واستولى عليها ، وقتل من فيها من الفرنسيين ، واخذ ما بها من الذخائر والمدافع ، وعجزت السفينة الحربية التي كانت تحرس المراكب عن رد الثائرين . وجرح قبطانها ورجالها ، فعادت السفينة الى القاهرة .

وهنا احس الجنرال دوجا بخطر الموقف خشية ان تمتد الثورة فتؤدي الى عواقب لا يستهان بها فتدارس الامر مع المسيو بوسليج . وقرر مكافحة الثورة بشتى الطرق . وجمع الديوان الذى وافق على تجريد مصطفى بك من اماره الحج ، وكان الهدف من ذلك ازالة منزلته التى كانت له في النفوس بوصفه اميرا للحج . والقى الفرنسيون القبض على وكيله الذى كان ناظرا للكسوة ، وعلى ابن اخيه وعلى باقى أتباعه وسجنوهم بالجيزة ، ثم كلف الجنرال لانوس قومندان المنوفية التحرك بقواته الى الشرقية كامداد بالنسبة لقلة القوات فيها ، فاتجه اليها ومعهم ستمائة من الجنود ، وانضم اليهم الكولونيل ديرانتو والجنرال فوجير . وبدأ الثلاثة يطاردون مصطفى بك الذى احس بضعفه امامهم ، وبعد قدرته على مواجهتهم فأخذ يفر من بلد الى آخر حتى اوغل في الصحراء الشرقية وانتهى امره وتشتت انصاره ، وسقط نفوذه ، وقال الجبرتي انه « لم نعلم عنه حقيقة حال . وقيل انه ذهب الى الشام » ، وذكر نيقولا الترك انه لجأ الى الجزار فراه امره وأمر بقتله . »

٢ — ان الثورة التى انتهت في الشرقية تجددت في اواخر شهر مايو ١٧٩٩ في مديرية القليوبية وفي منطقة ميت غمر والبلاد المجاورة لها ، اذ احتشد عدد كبير من الثوار في هذه المنطقة ، وهاجموا في ٣٠ من مايو سفينة حربية فرنسية قادمة من سمبود ، واستولوا عليها وقتلوا خمسة من جنودها ، واستولوا على اربعة مدافع كانت بها . فتحرك الجنرال لانوس من منوف الى ميت غمر لاصحاب الثورة ، وانسحب الثوار الى كفور نجم حيث دارت في ٥ من يونيو معركة عنيفة على شاطئ بحر موسى « خسر فيها الثوار عددا من القتلى ، وهزم الثوار ، واخذ الجنرال لانوس ينتقل من مكان الى آخر حتى قضى على الثورة نهائيا ، ثم اتجه الى ميت غمر ، فأمر باحراقها وتدميرها » حتى لم يبق فيها حجر على حجر .

٣ — في ١٥ من فبراير كتب الجنرال مينو حاكم رشيد يقول « لقد بدأنا نشعر باختلال فكرة الثورة في البلاد المجاورة لرشيد ،

وأخذ اهالى بعض القرى الثائرة يتهددون الملاحة فى النيل ، وقد هاجموا سفينة تحمل البريد ، فاضطرت ان تعود ادراجها ولا بد لنا ان نحميها بسفينة حربية لتستأنف سيرها .

وكان هذا الكتاب تعبيرا عن الهياج الشديد الذى ملأ نفوس الاهالى فى غربى الدلتا ، وقد بدأت ثورة أخرى فى منطقة رشيد وما حولها فى مارس ، ولعل الدافع المباشر لحالة الهياج هو ان الجنرال مارمون قومندان الاسكندرية ، فرض سلفة اجبارية على مديرية رشيد ، فدفعت رشيد قسطها ، ودفعت قوة ثلثى المفروض عليها . اما باقى البلاد فى المديرية فقد امتنعت عن الدفع ، ولجأ الفرنسيون الى القوة فسارت حملة مسلحة بقيادة الكولونيل جوليان لاجبار الاهالى على الدفع ، فعمت الثورة برنبال ومطوبس وشوباس عمير . والقنى ، والسعدة ، وسارت الحملة من رشيد ، وعندما وصلت الى شباس عمير لم تستطع أن تستولى عليها ، فجاءها مدد ، وهاجمت المدينة ، وضربتها بالدافع وهدمتها . وفعلت الشيء نفسه مع السعدة وبرنبال .

٤ - فى أواخر شهر ابريل ١٧٩٩ شبت الثورة فى البحيرة وكانت اشد خطرا من ثورة الشرقية اذ ظهر فيها رجل جاء من درنة بطرابلس الغرب وادعى المهدي ودعا الناس الى القتال ومقاومة الفرنسيين ، فانضمت اليه جموع كبيرة من أهالى البلاد ، وانحاز اليه سكان القرى ، وسار الرجل بهذه الجموع الى دمنهور ليلة ٢٤ من ابريل ، حيث كانت ترابط قوة من الفرنسيين بقيادة مارتان ، وهاجم المهدي القوة وقتل رجالها جميعا ، وقال فى ذلك الجبرتى « ان طائفة من عرب البحيرة يقال لهم عرب الفر جاءوا وضربوا دمنهور وقتلوا عدة من الفرنسيين ، وعاثوا فى نواحي تلك البلاد حتى وصلوا الى الرحمانية ورشيد ، وهم يقتلون من يجدونه من الفرنسيين » .

كان انتصار المهدي ورجاله فى دمنهور ذا صدى كبير فى انحاء البحيرة ، وآمن الناس بقوته . وظنوا انه صاحب قوة خارقة ، فأسرعوا ينضمون اليه حتى زاد عدد اتباعه . فتحرك من دمنهور متجها الى مديرية الغربية ، ووصلت الى دمنهور بعد تركه اياها حامية فرنسية بقيادة الكولونيل ليفيفر كانت تقوم بحماية الاموال من البلاد ، فلما علم بمسير الحامية الفرنسية ، رفض أن يتعقب المهدي وأسرع الى الرحمانية وطلب من الاسكندرية المدد ليستطيع مواجهة المهدي فبعث الجنرال مارمون بقوة مزودة بالدافع بقيادة ريدون ، فتحركت هذه القوة قاصدة الرحمانية لتنضم الى القوة الفرنسية بها ولكنها التقت برجال المهدي . ودار بينهما قتال استمر خمس ساعات انتصر فيها المهدي ، وعادت قوات ريدون الى الاسكندرية وعاد الجنرال مارمون فبعث الى الكولونيل جوليان يطلب مددا سريعا الى الرحمانية ، فوصلها هذا المدد وانضم الى القوة الفرنسية بها ، وتحركت لتلتقى برجال المهدي فى ٣ من مايو بسنهور البحيرة ، حيث دارت معركة عنيفة قاسية لا كان رجال المهدي فيها ١٥ ألف راجل ، ٤ آلاف من الفرسان ، واستمر القتال سبع ساعات ، دارت فيها مجزرة فظيعة ابلى فيها الفلاحون والمواطنون بلاء

حسنا ، وظهروا شجاعة واستخفافا لا نظير له بالموت ، كما بذل الكولونيل ليفيغر كل ما لديه من خبرة حربية وقام بالهجوم اكثر من عشرين مرة ، وحصد الكثير من الثوار بينادقه ومدافعه ، واستمر القتال حتى جاء الليل ، ونال الفرنسيين تعب كبير ، وفكر ليفيغر في الانسحاب والاتجاه الى الرحمانية ، وبرغم ان الاهالي كانوا يسدون عليه الطريق ، الا أنه استطاع أن يضم صفوف رجاله ، وان يخرق الجموع وأن يتسحب بعد أن تكبد خسائر فادحة ، وانتهت المعركة بفوز الثوار وارتداد الفرنسيين الى الرحمانية .

وتقدمت جموع الثوار الى الرحمانية لاحتلالها ، ولكنهم ارتدوا عنها فعادوا الى دمنهور .

وفي هذه الاثناء عهد الى الجنرال لانوس بالتحرك الى البحيرة للمقضاء على ثورة المهدي ، فغادر ميت غمر في ٥ من مايو فاصدا البحيرة . وانضم اليه جنود الجنرال فوجيير ، الذين كانوا في الغربية . واتصل لانوس بقوات الرحمانية ، ثم تقدم الى دمنهور واستطاع أن يدخلها وان يدمرها وأن يقتل أهلها ، ويصف ريبو دخول لانوس دمنهور فيقول « بعد أن احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال المهدي جميعا ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدي من سكان البحيرة ، فقد أراد الفرنسيون أن يطبعوا هذه المدينة بطابع الغضب والانتقام ، فأحرقوا مساكنها بالنار ، وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف ، وفي اليوم التالي كانت دمنهور ركاما من الاحجار السوداء ؛ اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى . ووصف الجنرال لانوس بنفسه ما ارتكبه من فظائع في دمنهور فقال « كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفا لانتقام الجنود ، وأمرت بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء ، والآن لم يعد لدمنهور وجود وقد قتل من أهلها نحو ١٢٠٠ ، ١٥٠٠ ماتوا قتلا أو جرقا » وقال الضابط ليفيغر « لقد حاصرنا دمنهور وأحرقناها ونهبناها واستولى جنودنا فيها على غنائم وأسلاب عظيمة » . وتعقب الجنرال لانوس قوات المهدي بعد ذلك حتى حدود مديرية البحيرة ، وبذلك يكون الفرنسيون في خلال غياب نابليون عن مصر قد استطاعوا اخماد كل الثورات في الوجه البحري ، واستتب لهم الامر في البلاد ، الا أن الهدوء الذي شمل البلاد كان هدوءا يخفي وراءه انفعالات ورغبات وعاصفة متحفزة على وشك ان تعم البلاد .

٥ - في ١٤ من يونيه ١٧٩٩ عاد نابليون الى مصر بعد أن فشل في حملته على سورية ، واحس نابليون على أثر عودته بأن البلاد تغفل ، وأن الشعب متحفز للhiاج وأن الهدوء الذي يسود البلاد إنما هو غشاء ستمزقه الحوادث ، وكان يدرك أن الشعب هاديء اذعانا لحكم القوة ، ولهذا أخذ يرقب الاحداث ويستعد لمواجهة ثورة جديدة .

وحدث في هذه الاثناء ان بعض المماليك بقيادة مراد بك تحركوا الى وادي النطرون قاصدين البحيرة ليلتقوا بالجنود التركية التي كان قد تردد انها على وشك النزول على سواحل مصر ، كما حدث ان تحرك

عثمان الشرقاوى قاصداً بوزخ السنويسى للافاة ابراهيم بك ، ولم يشأ نابليون ان يترك لهؤلاء حرية التحرك ، فبعث للجنرال وستنج والجنرال مورا لمواجهة مراد بك ، ولكن مراد بك أبى ان يخوض أية معركة وفر الى الصعيد كما هى عادته عند كل لقاء له مع الفرنسيين ، وهاجم الجنرال لاجرانج عثمان بك الشرقاوى فى السبع آبار وهزمه وأستولى على معسكره وتوسع نابليون فى سياسة التحصين فأمر باستئناف اعمال التحصين فى الصالحية وبليس ودمياط وابو قير والاسكندرية، لتكون هذه المناطق كلها صالحة للدفاع .

وحدث فى هذه الفترة ان رست بعض السفن العثمانية بجنودها على شواطئ البحر فيما بين « أبو قير » والاسكندرية ورشيد ، وبدأت معارك متعددة بين الفرنسيين والأتراك انتهت بانتصار نابليون انتصارا كبيرا . وخاصة فى موقعة « أبو قير » البرية ، واستطاع نابليون فى خلال فترة قصيرة أن يحرز أكبر انتصار له فى تاريخ حروبه اذ قضى على الجيش التركى خلال عشرين يوما .

واراد نابليون ان يؤثر فى نفسية المصريين وان يحطم فيهم كل رغبة فى الثورة ، وأن يشعرهم بقوته باستطاعته القضاء على أية حركة تقوم ضده ، فجمع فى ميدان الازبكية أسراه من الترك ، وجعل الناس يشاهدونهم وهم وقوف فى وسط الميدان ، ثم وزع هؤلاء الأسرى فى أماكن متعددة ، هذا فوق أنه امر باجراء عرض لجنوده المنتصرين فى شوارع القاهرة وميادينها ليشعر الناس بقوته ، فيفل من عزمهم ، ويضعف من رغبتهم فى المقاومة ، ويجعلهم يؤمنون بأن جيش فرنسا لا يهزم ولا تؤثر فيه الحوادث والاحداث .

الباب السابع
النضال الشعبي في عهدى كليبر وعينو

في عهد كليبر

تحول في سياسة نابليون ...

بدأ نابليون يتجه ناحية الغرب بدل الشرق ، وبدأ يفكر في أن مستقبل فرنسا سيتقرر على ضفاف الراين وليس على ضفاف النيل ولعل هذا التحول في سياسة نابليون يرجع الى عوامل ثلاثة :

أولاً : برغم انتصار نابليون العظيم في معركة « أبو قير » البرية على الجيش العثماني فان تركيا كانت قد أعدت جيشاً آخر بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ، ليتقدم الى مصر ويقوم باحتلالها عن طريق برزخ السويس ، ومعنى هذا ان انتصار نابليون الساحق في « أبو قير » لم يكن سوى هدنة مؤقتة ، يواصل بعدها الجيش الفرنسي جهده وقتاله من أجل بقائه في مصر ، ومن أجل محافظته على انتصاراته بها ، وكان لابد للجيش الفرنسي من أن يتلقى امدادات جديدة حتى يستطيع بها أن يدخل المعركة القادمة وأن يحرز فيها انتصاراً ، والحوادث التي كانت تجري في فرنسا في هذه الآونة كانت تؤكد ان فرنسا لا تستطيع أن تمد نابليون بجندى واحد كما سيأتي ذكره فيما بعد ... المهم ان تركيا كانت بالمرصاد لنابليون ولم يقعد لها انهزامها في « أبو قير » عن مواصلة السعى لدحر نابليون وطرده من مصر .

ثانياً : الشعور الشعبي العام في مصر لم يتغير تجاه نابليون وتجاه الحملة الفرنسية ، فالغضب والكره كانا يسيطران على نفسية الشعب المصري سيطرة بعيدة المدى عميقة الاثر ، حتى ان نابليون حين تحرك لمواجهة الجيش العثماني في « أبو قير » ، دعا أعضاء الديوان وطلب منهم المعاونة في دعوة الشعب الى الهدوء والتزام السكينة ، ولقد أحس الفرنسيون جميعاً بأن المصريين يفرحون اذا بلغتهم أنباء انتصار العثمانيين ، وكانوا يظهرون كراهيتهم للفرنسيين حتى أعضاء الديوان فقد كانوا يظهرون للفرنسيين غير ما يبطنون ، وكانوا يتمنون هزيمتهم ، فلما جاءت الانباء بانتصارهم قابل أعضاء الديوان هذه الانباء بالفتور والاعراض كما كانت تبدو منهم من خين الى آخر الروح العدائية للفرنسيين ، ومن هذا أنهم كانوا يعارضون محافظ المدينة في تصرفاته ، لانه كان نصيراً للفرنسيين مؤيداً لهم وفي ذلك يقول الجبرتي : « ان الاغا كان يريد أن يقتل في كل يوم أناساً بأدنى سبب ، فكان المهدي والصاوي يعارضانه ويوبخانه

ويخوفانه سوء العاقبة وهو يرسل الى سسارى عسكر فيطالعه بالاخبار ويشكو منهما « ... ولقد بلغ الخلاف بين أعضاء الديوان والفرنسيين حدا بعيدا حتى أنهم اتهموا بأنهم على اتصال بالجيش التركى ، ويقول ريبو « فى كل يوم كانت تقع حوادث تنم عن تغير مسلك الديوان حيال السلطة الفرنسية ، فتارة كان يتعدى اختصاصه ويفتات على سلطة الهيئات الأخرى بحالة لا يمكن الصبر عليها وطورا كان ينازع رؤساء الشرطة سلطتهم ويشدد الخلاف لاخلاء سبيل بعض الاهالى المذنبين ، وآونة كان ينقص الضرائب المفروضة على مشايخ البلاد ، وفى كل ظرف كانت تبدو على أعضائه روح جديدة مشربة بالعداء للفرنسيين » .

المهم ان الفرنسيين كانوا فى خوف من هياج الخواطر فى مصر ، وكانوا يتوقعون حدوث اضطراب فيها ، وان المصريين كانوا يجاهدون بعدائهم للفرنسيين ، وكراهيتهم لهم ، وكانوا ينتظرون الفرص للانتفاض والثورة عليهم .

ثالثا : تضعضع مركز فرنسا وتخرج فى أوربا ، وتلقى نابليون معلومات تؤكد انزال الجيوش الفرنسية فى النمسا وإيطاليا ، وخطورة الحالة فى فرنسا بسبب تألب الدول الأوروبية عليها فقد شبت الثورة فى البلاد التى فتحها فرنسا ، وفقدت فرنسا أملاكها فى ألمانيا وإيطاليا ، واشتد السخط فى داخل البلاد على حكومة الادارة ، وأخذت إنجلترا تشن الغارات فى البحار على أملاك فرنسا ، وتعاونت مع روسيا وتركيا فحاصرت جزيرة مالطة وكرفو ، وكانت فرنسا تغلى فى الداخل ، لان الاهالى القوا على عاتق حكومة الادارة تبعة الهزائم المتوالية والخسائر المتتابة ، ورأى نابليون خلال هذه الصور ان فرنسا أصبحت فى حاجة اليه لينقذها ويرد اليها هيبتها وأملاكها .

مغادرة نابليون مصر

ومن هنا بدأ نابليون يدرك أهمية وجوده فى فرنسا . ويرى ان وجوده هناك اكثر أهمية من وجوده فى مصر ، ولهذا قرر ان يعود الى الغرب بعد ان فشلت كل آماله فى الشرق ...

المهم هو ان نابليون قد اهتزت فى نظره الصور الجميلة التى كان يرجو ان يراها فى مصر وفى الشرق ، وأصبحت آماله فى انشاء دولة شرقية مبددة منتهية .

فى ٢٦ من مايو ١٧٩٩ بعثت حكومة الادارة الى نابليون رسالة تطلب منه ان يعود الى فرنسا ، جاء فيها « ان الجهود الخارقة للعادة التى تبذلها النمسا والروسيا ، والحالة الحرجة الخطيرة التى وصلت اليها تستدعى ان تجمع الجمهورية قواتها الحربية ... » يسر حكومة الديركتوار أن تراكس على رأس جيوش الجمهورية التى توليتم الى الآن قيادتها بكل جدارة وفخار » .

وتلاقت رغبة نابليون مع رغبة حكومة الادارة . فارتحل عن

القاهرة في ١٨ من أغسطس ١٧٩٩ في تكتم شديد حتى أنه أعلن أنه متجه إلى منوف للتفتيش على أحوال البلاد ، ثم أعلن نابليون في رسالة إلى الديوان أنه قد سافر إلى بلده ليفيب هناك ثلاثة أشهر ، ثم يعود من جديد ومعه امدادات ، بعد أن يكون قد نشر سيادته على البحر . وأعلن في رسالته أنه عين الجنرال كليبر قائدا عاما للقوات الفرنسية ، وقد كتب نابليون رسالة إلى كليبر عهد فيها إليه بتولى قيادة الحملة ورسم له الخطة التي يتبعها في مصر خلال غيبته .

وبسفر نابليون وتولى الجنرال كليبر قيادة الجيش الفرنسي تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الكفاح الشعبى في مصر ضد الفرنسيين .

مقارنة بين نابليون وكليبر ...

وصل كليبر إلى القاهرة في ٣١ من أغسطس ١٧٩٩ ، وبدأ الناس في القاهرة ينظرون إلى القائد العام الجديد ، ثم يفرقون بينه وبين القائد الذى رحل وتبين لهم أن القائد الجديد يختلف عن نابليون في عدة أمور :

١ - فهو تنقصه مقدرة نابليون على كسب القلوب ومباشرة الجلساء ومحاولة جذب الجماهير إليه ، فالناس كانوا يعرفون عن نابليون أنه حلو الحديث يداعب الناس ويتقرب اليهم اما كليبر فقد كان جافا مع الناس ، أحاط نفسه بمظاهر الأبهة والجبروت ، وفي ذلك يقول الجبرتى « ان اكابر البلد من المشايخ والاعيان ذهبوا اليه لمقابلته والسلام عليه فلم يروا منه بشاشة ولا دلاقة وجه مثل بونايرت فانه كان بشوشا يياسط الجلساء ويضحك معهم » . . . وفي ذلك أيضا يقول ريبو « ان بونايرت كان يمتاز بأساليبه البسيطة المألوفة وعاداته البعيدة عن الفخفة والأبهة ، اصف الى ذلك قامته القصيرة وقوامه الضئيل ، ومع ذلك فقد كان المصريون يقدرون عظمة بونايرت فيقولون عنه بونايرت الكبير في حين كانوا يقولون عن خلفه كليبر الطويل » .

٢ - كان كليبر يهتم بمظهره فطالب الناس بأن يؤدوا له ما كان يؤدى للباشوات والبكوات المماليك من مظاهر الاجلال والتكريم وهو بطلبه هذا كان ينفر الناس منه ولا يجتذب اليه القلوب ولا يحبب اليه النفوس ، فكان جنوده يأمرؤن الناس بالوقوف في أثناء مروره ، ويتقديم فروض الطاعة بصورة منفرة ووصف الجبرتى موكب كليبر وهو يمر بالقاهرة فقال : « ركب سارى عسكر الجديد من الازبكية ، ومشى في وسط المدينة في موكب حافل حتى صعد الى القلعة ، وكان امامه نحو الخمسمائة قواس وبأيديهم النبائيت ، وهم يأمرؤن الناس بالقيام له والوقوف على الاقدام لمروره ، وكان صحبته عدة كثيرة من خيالة الافرنج وبأيديهم السيوف المسلولة والوالى والاغا وبرتلعى بمواكبهم وكذلك القلقات والوجاقلية وكل من كان مولى من جهتهم ومنضما اليهم » .

٣ - من أهم ما كان يتميز به كليبر عن نابليون أنه كان يكره

الالتجاء الى فرض الغرامات والقروض الاجبارية ، حتى انه كثيرا ما كان يختلف مع نابليون بهذا الخصوص ، وكان لا يتردد في طلب اعفائه من منصبه حين كان يتولى منصب محافظ الاسكندرية حتى لا يجارى نابليون في فرض الغرامات والقروض .

وحين تولى كليبر الأمر حاول أن يتقرب الى المصريين ومن أجل هذا اتخذ خطوتين هما :

(١) التقى بأعضاء الديوان وتحدث اليهم وقدم لهم سياسته وجاء في قوله لهم : « أنى أريد أن احييكم على تمنياتكم بأعمالى لا بأقوالى ، على ان الأعمال تأتى بطيئة ، ويظهر أن الشعب متشوق الى معرفة المصير الذى ينتظره فى عهد الرئيس الجديد . فقولوا للشعب ان الجمهورية الفرنسية باسناد حكومة مصر اليه ، كلفتنى أن أسهر على سعادة الشعب المصرى . وان هذه المهمة من بين مهمات مركزى احبها الى قلبى » .

ووعد كليبر العلماء بأن يحترم شعائر الدين تماما كما كان يحترمها نابليون ، ويقدر شعائر المسلمين الدينية ، كما كان يفعل سلفه ، ثم هو بعد ذلك يعد بأن يسعى جهده لكسب محبة العلماء والمشايخ والأعيان ، وأن يتبع فى حكمه خطة العدل والنزاهة .

(٢) اتجه كليبر الى الديوان فأحدث به بعض التعديلات وأجرى تقسيما اداريا فى البلاد فجعلها ثمانية اقاليم وحدد لكل اقليم عاصمة : طيبة . المنيا . القاهرة . الشرقية . الاسكندرية . الغربية ، دمياط ، المنوفية

قابل المصريون حكم كليبر بشيء من التحفظ . وكانت حالة البلاد فى أيامه الأولى مستتبة هادئة ، ولم يكن الاستقرار فى القاهرة وحدها وإنما فى جميع انحاء القطر . اذ هدأت النفوس فى القاهرة ووقفت حركات الهياج فى الوجه البحرى ، وسكنت العاصفة فى الصعيد حتى ان مراد بك حاول خلال شهر أكتوبر أن يقسوم بمناوشات فى المنطقة ما بين أسيوط وجرجسا فهاجمه الجنرال ديزيه وقضى على قوته وفر الى الصحراء ، وبذلت انجلترا محاولة لاحتلال القصير فبعثت ببارجتين حريتين الى هناك ، قامتا بقصف القلعة بالمدافع ، وحاولتا انزال الجنود الى الشاطئ تحت حماية المدافع ، ودارت معركة عنيفة كان قائد الفرنسيين فيها الجنرال دنزلو قائد حامية القصير ، واستطاع الفرنسيون القضاء على قوة الانجليز مما اضطر هؤلاء الى الاقلاع بسفنهم الى عرض البحر .

وبذلك تكون الامور قد استقرت فى مصر فى بداية حكم كليبر ، مما منحه الفرصة لتعزيز موقفه فى مصر وليوطد مركزه فلقد كان كليبر يخشى امرين . . يخشى ثورة المصريين فى الداخل ، ويخشى بعد ذلك جهود تركيا ضد الفرنسيين ورغبتها فى بعث الجيوش لطردهم من مصر ولهذا قام كليبر بتقوية الاستحكامات والقللاع فى القاهرة وفى المناطق

المحيطة بها ، كما عمل على تزويد مخازن الجيش وتوسيع المستشفيات وتوفير الذخيرة اللازمة لقواته .

وبرغم كل الجهود التي بذلها كليبر لتقوية مركزه أو لاجتذاب قلوب المصريين اليه ، فانه لم يكن خافيا أن الشعب في مصر قد ازداد ضيقا نتيجة لسوء الحالة الاقتصادية في البلاد ، حتى أنه قيل ان نابليون حين غادر مصر لم يترك درهما واحدا في الخزانة ولقد أحس كليبر بسوء الحالة الاقتصادية في البلاد ، ومدى الضغط الاقتصادي الذي يعانيه الشعب ، ولهذا فانه كان يتوقع ثورة شعبية ، وهو يقول حين يصف مشاعر الشعب « ان مصر بالرغم من السكون الظاهري الذي شملها لا تعتبر الا مذعنة لحكم القوة ، والشعب المصري موزع الفكرة قاق على مصيره ، ولا يرى فينا مهما فعلنا الا أعداء أرضه وماله ، وقلبه متجه دائما الى الامل في حدوث الانقلاب الذي يتوقعه » . وفي هذا المعنى أيضا يقول المسير بوسليج « ان الشعب المصري يكرهنا وهيهات أن يحبنا . مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل بلاد محتلة ... أنهم يهتفون بحكم الممالك ، ويرهبون نير الاستانة ، ولا يحبون حكمها ، ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه الا بأمل التخلص منه » .

حدث في عهد كليبر تطور في العلاقات بين تركيا وفرنسا فتركيا كانت ترى أن فرنسا قد اغتصبت مصر من أملاكها ، وكانت تفكر بصفة مستمرة منذ وطئت أقدام الفرنسيين مصر في استعادتها على أساس أنها جزء تابع للدولة العثمانية ، ولهذا اتجهت تركيا الى العنف لاستخلاص مصر من أيدي الفرنسيين ، ووقع في عهد نابليون أول اشتباك بين الفرنسيين والأتراك في موقعة « أبو قير » ، حيث استطاع نابليون أن يقضي على الحملة العثمانية قضاء تاما ، وأن ينزل بهم خسائر فادحة ، وأن يلقي القبض على مصطفى باشا قائد الجيش العثماني ويأسره ، وقال كثير من المؤرخين ان هزيمة العثمانيين في هذه الموقعة تشبه الكارثة ، فقد فقدوا ثمانية آلاف ما بين قتيل وجريح وغريق ، عدا ثلاثة آلاف من الأسرى وعدد كبير من مدافع الجيش وذخائره ..

وفي اواخر اكتوبر ١٧٩٩ اقبلت على شواطئ دمياط قوة بحرية عثمانية تتألف من ثلاث وخمسين سفينة تحمل سبعة آلاف من جنود الانكشارية بقيادة السيد علي بك ، ومعها بارجة انجليزية تسمى تيجر - النمر - ، وعليها السير سدن سميث قائد الاسطول البريطاني ، ونزلت القوات بالقرب من بوغاز دمياط في مواجهة القوات الفرنسية بقيادة الجنرال فردييه ، ونشبت معركة كبيرة بين الفريقين انتصر فيها الفرنسيون انتصارا كبيرا وخسر العثمانيون ثلاثة آلاف من رجالهم فوق ثمانمائة أسير .

وبرغم هذا الانتصار الكبير الذي أحرزه الفرنسيون في بداية عهد كليبر ، الا ان كليبر كان يسعى الى عقد صلح للانسحاب من مصر ،

فقد كان مقتنعا بضرورة انتهاء حالة الحرب مع تركيا ، وعقد الصلح والجلاء عن مصر .

وحدث أن تقدمت قوات عثمانية بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا الى غزة تمهيدا للزحف على مصر ، وكانت في ذات القوات وحدات الاسطول الانجليزى بقيادة سيدنى سميث تتحرك بين يافا والاسكندرية لمراقبة السواحل المصرية وبعث كليبر أسيره مصطفى باشا وقائد الحملة التركية فى معركة (أبو قير البرية) للمفاوضة على اساس جلاء الفرنسيين عن مصر .

وعلى ظهر البارجة الانجليزية تيجر بدأت المفاوضات التى اشترك فيها سيدنى سميث كمندوب عن انجلترا وحلفائها وباءت المفاوضات بالفشل ، وتركت القوات العثمانية داخل الاراضى المصرية ، وهنا بدأت محاولة أخرى للتفاهم انتهت بمعاهدة العريش (٢٤ من يناير ١٨٠٠) وأخذ كليبر يستعد لمغادرة البلاد الا أن انجلترا نقضت معاهدة العريش اذ أعلنت انها لا تقبل أى اتفاق مع الجيش الفرنسى الا اذا ألقى السلاح من يديه وسلم جميع الذخائر والاسلحة واعتبر الجنود أسرى حرب . وأعلنت انها لن تسمح لاية سفينة تقل جنودا فرنسية بالتحرك فى البحر الأبيض حتى ولو كانت تحمل جواز مرور من أحد الحلفاء وانها ستعتبر السفن غنيمة الحرب والجنود الذين فوقها أسرى حرب . ورفض كليبر رغبات انجلترا واستعد لخوض غمار معركة جديدة ، وكانت معركة عين شمس وانهزم فيها الجيش العثمانى هزيمة منكرة ، وتقهقر بغير نظام متكبدا خسائر فادحة .

وفى هذه الاثناء كانت الحامية الفرنسية فى القاهرة مؤلفة من ألفى مقاتل بقيادة الجنرال فردييه ، وكان كليبر يتوقع قيام ثورة شعبية فى القاهرة خلال اشتباكه مع القوات العثمانية ، ولهذا أمر فردييه بالمحافظة على المواصلات بين قصر النيل وقلعة الجبل . وقلعة قنطرة الليمون ، كما أصدر أوامره الى الجنرال زايونشك الم رابط فى الجيزة بمعاونة فردييه اذا لزم الامر .

وفى أثناء معركة عين شمس انفصلت كتيبة عثمانية بقيادة نصوح باشا ودخلت القاهرة ، فوجد الاهالى فى هذه الكتيبة ما يشجع على استغلالها للثورة ضد الفرنسيين ، هذا فوق أن ناصف باشا انسحب بعد المعركة الى القاهرة وانضم الى الكتيبة وبعث برجاله يحرضون الاهالى على الثورة وقتال الفرنسيين ، فذهب بعضهم الى دمياط والبعض الآخر الى الصعيد ، وكانت نفوس المصريين متأهبة للثورة ولكنها كانت تنتظر الفرص لكى تثور ، ومن هنا بدأت حركات النضال الشعبى تظهر وتتجدد .

ووجد الجنرال كليبر نفسه أمام مشكلة جديدة كان لابد من اتخاذ خطوات حاسمة لمواجهتها ، وبعد انتصاره العظيم فى عين شمس أمر الجنرال رامبون بالتحرك الى دمياط والجنرال بليار لمعاونة رامبون ، كما انضم اليهما الجنرال لانوس .

ثورة القاهرة الثانية ...

شبت الثورة الشعبية في القاهرة في ٢٠ من مارس سنة ١٨٠٠ في الوقت الذي كانت تدور فيه معركة عين شمس ، وكان من زعماء الثورة عمر مكرم وأحمد المحروقي والشيخ الجوهري ، وشبت الثورة في بولاق ويصف الجبرتي نشوبها فيقول : « أما بولاق فانها قامت في ساعة واحدة وتحزم الحاج مصطفى البشتيلي (وهو من اعيان بولاق) وأمثاله وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصبفحوا ، وأول ما بدءوا به أنهم ذهبوا الى وطاق الفرنسيين الذي تركوه بساخل البحر ، وعنده حرس منهم فقتلوا من أدركوه ونهبوا جميع ما به من خيام ومتاع ، ورجعوا الى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التي للفرنساوية ، وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس » .

بدأت الثورة كما قلنا في بولاق واتجه أهلها وقد حملوا السيوف والرماح والبنادق والعصى الى قلعة قنطرة الليمون ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم وفتحت عليهم نيران مدافعها ، فنظم الثوار صفوفهم وعادوا يهاجمون القلعة ، واستطاع الجنرال فردييه أن يبعث بمدد الى حامية القلعة وان يشتت الثوار .

وكانت ثورة بولاق بداية لاشتعال الثورة في جميع أنحاء المدينة ، فقد بدأ الناس يشاهدون جماعة من المماليك كإبراهيم بك ومحمد الألفي وحسن الجداوى ، ومعهم جماعة من الأتراك الفارين من ميدان القتال ، فظنهم مقدمة لقوات العثمانيين التي انتصرت على الفرنسيين . والتي تتقدم الى القاهرة ، فاشتعلت الثورة في كل مكان بالمدينة ، والتقى عشرة آلاف تائر في ميدان الازبكية ، فواجههم الجنرال ديرانتو بنيران شديدة، وردهم وأقام متاريس من جذوع النخيل حول معسكر الازبكية .

وفي لحظات زاد عدد الثوار الى خمسين ألف وانضمت النساء والاطفال الى الثورة ، وكان لهم نداءات وصيحات تصم الأذان ، واجتاحت الثورة العاصمة كلها . وبدأ الثوار هجومهم على معسكر الازبكية وكان يعاونهم مدفعان عثمانيان وصلا خفية الى القاهرة . واستخدم الثوار كرات الموازين الحديدية بدلا من القنابل لعدم وجودها ، ونشب قتال عنيف بين الثوار والفرنسيين واستمر الى اليوم التالي (٢١ من مارس) وبدأ الفرنسيون بسلطون نيران مدفعية القلاع الى المدينة ، فتساقطت القنابل فوق الأحياء الشائرة ، ووقع الرعب في الناس ، وحاول كثيرون الخروج من المدينة ، الا أن زعماء الثورة أغلقوا أبواب الخروج أمام الناس ، وأشعلوا روح الحماس ، فهاجم الثوار بيت محافظ المدينة مصطفى أغا وقتلوه .

واتسع نطاق الثورة ، وتعاونت جميع طبقات الشعب ، وفي هذه الاثناء وصلت الى القاهرة نجدة كبيرة بقيادة الجنرال « لاجرانج » وكانت هذه النجدة ذات معنويات عالية في انتصار الفرنسيين في معركة عين شمس ، واستطاعت هذه النجدة أن تصل الى الازبكية وأن ترفع

الحصار عنه وان تنضم الى حاميتها ، مما جعل من العسير على الثوار دخول منطقة الازبكية .

وفى هذه الاثناء وصل الجنرال « فريان » الى المدينة وحاول ازالة المتاريس التى اقامها الثوار ، ولكنها كانت على جانب كبير من المناعة فاتجه الى وسيلة الاقناع ، فبعث برسل الى الناس يحدثهم حديثا هادئا ويوضح لهم ان الفرنسيين قد انتصروا فى عين شمس ، وانهم لا يريدون ان يقضوا على الثورة بالعنف ، وانهم يميلون الى التفاهم ولكن الاهالى كانوا قد قرروا الاستمرار فى الثورة حتى يخرج الفرنسيون من مصر . وحتى يتولوا هم مقاليد الامور ، فقتلوا رسله ، وأنشئوا معملا للبارود ، ومعملا لاصلاح الاسلحة والمدافع ، ومعملا لصنع القنابل وصب المدافع ، وجمعوا الحديد من المساجد والخوانيت ، وبدأ العمال يتطوعون للعمل فى هذه المعامل ، واخذ الاهالى يجمعون القنابل الفرنسية التى كانت تسقط عليهم ولا تنفجر ليستعملوها من جديد لضرب الفرنسيين ، واتخذت الثورة صورة جديدة عنيفة وبذل كل مصرى كل ما يستطيع من جهد لنجاح الثورة ، ويقول فى ذلك الجبرتى « واحضروا ما يحتاجون اليه من الاجشاب وفروع الاشجار والحديد وجمعوا الى ذلك الحدادين والسباكين ، وارباب الصنائع الذين يعرفون ذلك . فصار هذا كله يصنع بيت القاضى والخان الذى بجانبه والرحبة التى عند بيت القاضى من جهة المشهد الحسينى » ، وقال « مارتان » - احد مهندسى الحملة - فى كتابه « تاريخ الحملة الفرنسية على مصر » : « لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع احد ان يقوم به من قبل . فقد صنعوا البارود وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصنائع وفعلوا ما يصعب تصديقه ذلك انهم صنعوا المدافع » . وقال كليبر : « استخرج » الأعداء مدافع كانت مطبورة فى الارض وأنشئوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وصب القنابل ، وأبدوا فى كل ناحية من النشاط ما أوحى به الحماسة والعصبية . . . هذه هى بوجه عام حالة القاهرة عند قدومى اليها ، وانى لم أكن أتصورها فى هذه الدرجة من الخطورة » .

تعاون المصريون جميعا فى ثورتهم ، وتطوعوا لامداد الثورة بكل ما تحتاج اليه من زاد ونفقات ، كما بذل أهل الارياف والضواحي الكثير ، وقدموا المعونات برضا وרגبة ، فقد كانوا يأتون للثوار باحتياجاتهم من السمن والجبن واللبن والقلة .

وحينما جاء كليبر الى القاهرة فى ٢٧ من مارس وجد الثورة مشتتة فى كل مكان ، وأحس بمدى المعونات المقدمة من الضواحي والبلاد المجاورة للقاهرة ، وشاهد بعينه حصون الثوار التى اقيمت فى بولاق ومصر الجديدة ، ووجد الوكالات والمخازن وقد تحولت الى قلاع يستخدمها الثوار ، واستطاعوا منها أن يجعلوا الملاحة فى النيل تحت رحمتهم ، وأخذ كليبر يدرس الموقف ويقدر الظروف ويضع خطته وانتهى الى أن اتخاذ القوة ومحاولة القضاء على الثورة بالحديد والنار قد لا يؤدي الى النتيجة المرجوة بالنسبة الى العوامل التالية :

١ - المتاريس منتشرة في كل مكان ، وهى تحول دون حرية التحرك داخل المدينة .

٢ - الثوار مستبسلون في المقاومة في معاكلهم وهذا يحتاج الى عدد كبير من المهاجمين كما انه قد يؤدى الى فقد عدد كبير من الجنود .

٣ - قواته ما زالت مبعثرة ، فالجنرال « بليار » في دميـاط والجنرال « رينيه » في الشرقية .

٤ - وجود نقص كبير في الذخيرة التى نفذ جزء كبير منها في معركة عين شمس .

وفي ضوء هذه العوامل قرر كليبر أن يطيل الوقت أمام الثوار فكلما طـال الوقت قلل ذلك من عزيمتهم ، وأضعف من شسوكـتهم وأعطى الفرصة لايجاد الفرقة بينهم ، هذا فوق انه كان يأمل أن يعرف الثوار حقيقة نتيجة المعركة في عين شمس ويدركوا أن الفرنسيين هم المنتصرون مما يضعف روحهم المعنوية ويبعث بالملل الى صفوفهم كما أن وقف حركة التجارة والاسواق سوف يؤدى الى تعرض المدينة لخطر المجاعة وهذا يدفع الأهالى الى السعى لانهاء الثورة .

إذا فكليبر أراد أن يستغل طول الوقت في اضعاف حركة الثورة . وهو في ذات الوقت أخذ يعد العدة ويرتب الامر ليقضى على الثورة . فاتجه الى تحصين القلاع واقامة الاستحكامات وتركيب المدافع واعداد مواد ملتهبة لاستخدامها في حرق المدينة .

ورأى كليبر بحصافته وذكائه أن الثوار يتكونون من عناصر ثلاثة ... « مصريون ... وأتراك ... ومماليك » ... وأدرك أن هذه العناصر الثلاثة وإن اتحدت في محاربة عدو مشترك فإنها تختلف في مصالحها وتباين في أغراضها ، فالمصريون يريدون استقلالاً وحرية ، والأتراك يريدون أن يجعلوا مصر جزءاً من دولتهم الكبيرة ، وأن يعيدوها الى حظيرتهم ولاية من ولاياتها ، والمماليك يطمعون في أن تعود اليهم السلطة في البلاد كما كانت لهم قبل الحملة الفرنسية ، فاتجه كليبر لينفذ من خلال هذه الثغرة الى تفرقة العناصر الثلاثة وبدأ بزعماء الأتراك ففاوضهم في وقف القتال ، وكان رسوله في ذلك أسيره مصطفى باشا الذى كان كليبر يحسن معاملته ، واتصل مصطفى باشا بناصف باشا وفأوضه مع غيره من زعماء الأتراك ، وبذل جهداً في مفاوضة المماليك أيضاً ، وتم الاتفاق بينهم وبين الفرنسيين على القاء السلاح .

وفي هذه الاثناء كان مراد بك يسعى الى التفاهم مع كليبر الذى رأى في محاولات تركيا في العودة الى مصر خطراً عليه ، والتقى مراد بك بكليبر وتم التفاهم بينهما وعقدت بينهما معاهدة سميت بمعاهدة « كليبر - مراد » قبل فيها مراد بك أن يحكم الصعيد تحت حماية الحكومة الفرنسية ، وقد بالغ مراد بك في الولاء للفرنسيين فبعد توقيع المعاهدة بعث الى معسكر الفرنسيين بالهدايا والمهمات والفلال والمؤن ، وسلمهم

العثمانيين اللاجئين اليه ، وطرده درويش باشا الذي كان قد عين واليا على الصعيد ، وسعى الى ضم المماليك الذين كانوا في القاهرة الى صفوف الفرنسيين ، فلما أعيته الحيل أشار على كليبر باضرام النار في القاهرة ، وأرسل كما يقول « ريبو » عدة مراكب محملة مواد ملتهبة تكفى لحرق القاهرة ، وذكر « جالان » انه بعد الاتفاق مع مراد بك « أرسل لنا المؤن وسلم لنا العثمانيين اللاجئين الى معسكره . وسعى لدى أعوانه في القاهرة لتسليم المدينة لكنه رأى ان مسعاه لم يؤد الى نتيجة سريعة فعرض علينا احراق المدينة وأرسل لنا لهذا الغرض المراكب محملة احطابا .. » .

وبذلك امن كليبر جانب مراد بك في الصعيد واستطاع كليبر ان يخضع الوجه البحرى بأكمله فقد وصل الجنرال بليار الى دمياط ودارت بينه وبين العثمانيين الذين كانوا يعسكرون في المدينة معركة عند قرية الشعراء ، فهزم العثمانيين ، واستولى بليار على دمياط وعزبة البرج وفرض غرامة حربية على سكان المدينة ، ثم تقدم الى منوف وقضى على الثورة فيها ، كما استطاع الجنرال لانوس اخمد حركة الهياج التي ظهرت في المحلة الكبرى وسمنود وطنطا ، وفرض كليبر غرامة على علماء طنطا لأنهم ساعدوا على قيام الثورة في مدينتهم وفي الدلتا .

بعد ان استتب الامر لكليبر في الوجه البحرى بقضائه على الثورات المختلفة وحالة الهياج التي ظهرت في مختلف المناطق وبعد ان استتب له الامر في الوجه القبلى باتفاقه مع مراد بك ، أصبحت القاهرة محاصرة مطوقة ، وحانت الفرصة لكليبر لكي يقضى على الثورة فيها ، فأصدر أوامره الى المدفعية لتصلى المدينة نارا حامية ، وتطلق قذائفها على المنازل التي لجأ اليها الثوار .

وفي ٣ من أبريل وصلت الى القاهرة فرقة الجنرال رينيه واحتلت المرتفعات التي تشرف على المدينة فيما بين قلعة قنطرة الليمون «كامان» وقلعة جامع الظاهر «سلكوسكى» .

وفي ليلة ٤ من أبريل تقرر شن هجوم عام على المدينة فأمر الجنرال كليبر بتقديم جميع الكتائب الفرنسية من باب الحديد وكوم أبو الريش وقنطرة الحاجب وبركة الرطل والحسينية وباب النصر ، كما أمر الجنرال رينيه باحتلال منطقة باب النصر وأن يصوب منها مدافعه الى الجامع الازهر .

بدأ الفرنسيون تقدمهم من باب الحديد ، واستطاع الثوار ان يقضوا على الكتيبة الاولى المتقدمة ، وأن يقتلوا ضابطها ، ثم تقدمت كتيبة أخرى وتمكنت من أن تقتلع المتاريس التي كان يتحصن وراءها الثوار ، فهربوا من مكانهم وطاردتهم القوة الفرنسية واقتحمت المنازل التي لجئوا اليها ، واشعلت النار في المباني التي كانت تعترض تقدمهم واشتد القتال بين الطرفين واستطاع الثوار أكثر من مرة أن يصدوا الفرنسيين ، ولكن هؤلاء تمكنوا أخيرا من السيطرة على الموقف ، واستمرت المناوشات من يوم ٥ من أبريل حتى يوم ١٠ منه .

وفي ١٢ من ابريل اجس الجنرال كليبر أن منطقة «كوم أبو الريش»
« في الفجالة » تعتبر نقطة ارتكاز للثوار ، فمنها يمكن للثوار قطع
المواصلات بين قلعة الظاهر وبين معسكر الفرنسيين في الازبكية ، ولهذا
كلف الجنرال رينيه احتلالها ، واستطاع الجنرال روبان أن يهاجم الثوار
وأن يجلبهم عنها ، ثم قامت قوة فرنسية أخرى بمهاجمة بركة الرطل
« بالفجالة أيضا » واقتحمتها واشعلت فيها النار ، وحاول الثوار أكثر
من مرة استعادة منطقة « كوم أبو الريش » ، ولكن الفرنسيين ردوهم
على أعقابهم :

وفي قطاع ميدان الازبكية كان الثوار يحتلون بعض المنازل وخاصة
بيت فرقة الهندسة ، فضربه الفرنسيون بالمدافع ، ثم هاجموه تحت
ستار من نيران المدفعية ، واحتلوه ، ثم استطاع الفرنسيون أن يحتلوا
بيت السيد البكري وبيت أحمد أغا شويكار وطردها منهما الثوار .

وفي هذه الاثناء وصل الجنرال بليار من دمياط وعسكر امام
بولاق واحاط الفرنسيون بها ومنعوا الدخول اليها والخروج منها
واكثروا من قذفها بالمدافع ليلا ونهارا ، هذا في الوقت الذي كسدت فيه
الاسواق وقلت الاقوات وغلت الاسعار وفقدت الحبوب ، واشتدت
بالناس الكروب والمحن ، واستهدفت البلاد لكوارث وويلات ، وبدأ
الناس يشعرون بالموقف الاليم الذي يعيشونه ، وبالحالة البشعة التي
تحيط بهم وبدأ العلماء يسعون من أجل حقن الدماء ، وبدأت مفاوضات
النصلح بين الفرنسيين والثوار ، ويصف الجبرتي الحالة التي كانت عليها
البلاد قبل البدء في المفاوضات فيقول « وصل كليبر الى داره بالازبكية
وأحاطت العساكر الفرنسية بالمدينة وبولاق من الخارج ومنعوا
الداخل من الدخول والخارج من الخروج ، وذلك بعد ثمانية أيام من
ابتداء الحركة ، وقطعوا الجالب على البلدين ، وعند ذلك اشتدت
الحرب ، وعظم الكرب ، واكثروا من الرمي المتتابع بالمكامل والمدافع ،
وأوصلوا وقع القنابر والبنبات . من أعالي التلول والقلعات ، خصوصا
البنبات الكبار على الدوام والاستمرار اثناء الليل وأطراف النهار ، في
الغدو والبكور والاسحار ، وعدمت الاقوات ، وغلت أسعار المبيعات
وعزت المأكولات ، وفقدت الحبوب والفلات ، ... واستمر الحال على
ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب وشدة البلاء والكرب ووقوع
القنابل على الدور والمساكن من القلاع ، والهدم والحرق وصراخ النساء
من البيوت والصغار من الخوف والجزع والهلع ، مع القحط وفقد الماكل
والمشارب ، وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ، ووقوف حال الناس
من البيع والشراء وتفليس الناس »

بعث الجنرال كليبر يطلب وفدا من العلماء يكون الوسيط بينه
وبين الثوار ، فجاءه وفد يتكون من الشرقاوى والمهدي والسرسى
والفيومي ، وعرض عليهم كليبر وقف القتال في مقابل الامان والعفو عن
أهل القاهرة ، على أن يخرج ناصف باشا وكل الجنود العثمانيين من
البلاد ، وأعلن العلماء خوفهم من أن ينتقم الفرنسيون كما فعلوا حين
انتهت الثورة القاهرية الأولى في عهد نابليون ، ولكن كليبر وعد بعقد

صلح بين (الجانبين) ، وانه سيتمسك بهذا الصلح ، ولن يفكر في أي نوع من الانتقام ، ولما نقل العلماء رغبة كليبر وشروطه الى زعماء الثوار ، هاج هؤلاء عليهم وسبواهم ، وشتموهم ، وضربوهم كما يقول الجبرتي واثمموهم بأنهم على حد قوله « ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيين » .

اما العثمانيون فقد بعثوا الى كليبر يقولون له ان الجنود العثمانيين رفضوا الصلح وأنهم مصممون على قتال الفرنسيين ، فاما ظفروا بهم واما ماتوا عن آخرهم .

وهكذا فشلت المساعي وكما قال الجبرتي « تغلب الجهلاء على العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء » ، وبدأ كليبر يخطو خطوات حاسمة ويتخذ اجراءات عنيفة ، ليقضي على الثورة .

وفي ١٤ من ابريل ١٨٠٠ اندر كليبر الثوار ، فاستهانوا بانذاره ، وفي فجر اليوم التالي بدا الفرنسيون هجومهم على حي بولاق وبدأت مدفعيتهم تقذف الحي في غير رحمة ، فتحطمت المتاريس الموجودة في مدخل الحي ، ووجد الفرنسيون أمامهم ثغرة كبيرة ، فاندفعوا منها الى شوارع بولاق ، واشعلوا النيران في البيوت ، فامتدت النيران من البيوت الى المخازن والمحلات ، قالتهم ما بها من تجارة مخزونة ودمرت الحي بأكمله ، ومات كثير من العائلات تحت الانقراض وفي لهب النار ، وعاشت بولاق في مأساة عنيفة على اثر النكبة الكبيرة التي حلت بها ، وصور الجبرتي روعة المأساة في قوله « هجموا على بولاق من ناحية البحر » يقصد من ناحية النيل « ومن ناحية بوابة ابي العلا ، وقاتل اهل بولاق جهدهم ، ورموا بأنفسهم في النيران حتى غلب الفرنسيين عليهم وحاصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل ، وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما تشيب من هولته النواصي ، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والازقة ، واحترقت الابنية والدور والقصور ، وهرب كثير من الناس ، واحاط الفرنسيين بالبلد واستولوا على الحانات والوكالات والودائع والبضائع ، وملكوا الدور وما بها من أمتعة ، والاموال والنساء والصبيان والبنات ، ومخازن الفلاّ والسكر والكتان والخبز والأبازيز والارز والادهان والاصناف العطرية ، وما لا تسعه السطور ولا يخطط به كتاب ولا منشور ... » .

ورواية الجبرتي هذه تتفق مع رواية المسيو جالان الذي شاهد هذه الفترة الحالكة في حياة بولاق فهو يقول « اندرت بولاق ، بالتسليم فرفض أهلها كل انذار ، وأجسبوا باباء وكبرياء أنهم يتبعسون مصير القاهرة ، وأنهم اذا هوجموا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت ، وأخذ الجنرال فريان يحاصر المدينة ، وبدأ يضرب عليها من المدافع ضربا شديدا ، أملا منه في اجبار الاهالي على التسليم ولكنهم أجابوا بضرب النار ، فأطلقت المدافع قنابلها على المتاريس ، وهجم الجنود على الاستحكامات ، فاقحموا أكثرها ، وظل بعضها يقاوم واستبسل الاهلون في الدفاع ولجئوا الى البيوت فاتخذوها حصونا يمتنعون بها ، فاضطرت الجنود الى الاستيلاء على كل بيت منها والتغلب عليها بقوة

الحديد والنار ، وبلغ القوم في شدة الدفاع حدا لا مزيد بعده ، وفي هذا البلاء عرض العفو على الثوار فأبوه واستمر القتال ، فجعلنا المدينة ضراما ، وأسلمناها للنهب ، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم ، فجرت الدماء أنهارا في الشوارع واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها إلى أقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفا للخراب واكلتها أهوال الحرب وفظائعها .

وعندما استسلم أهل بولاق بعد كل ما حصل بهم من الخراب والتدمير ، فرض عليهم الفرنسيون غرامة جسيمة بلغت ٢٠٠ ألف ريال ، فوق ٣٠٠ ألف ريال تجبى عروضاً من السكر والبن والزيوت وغيرها كما فرض عليهم أن يسلموا ما عندهم من المدافع والذخيرة والاختشاب ، والفلال والشعير والأرز والعدس والفول ، وأن يسلموا ٤٠٠ بندقية و ٢٠٠ طبنجة ، وقبض الفرنسيون على مصطفى البشتيلي رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه ، فضرب بالعصى حتى مات .

نخرج مما حدث في بولاق بالنتائج الآتية :

- ١ - اصرار الاهالى على مقاتلة الفرنسيين .
 - ٢ - اشتراك الرجال والنساء والاطفال في الحرب .
 - ٣ - استنكر الاهالى اية محاولة للصلح مع الفرنسيين .
 - ٤ - رفض الاهالى اى انذار وجه اليهم وأعلنوا انهم سيدافعون حتى الموت .
 - ٥ - استبسل الاهالى في الدفاع وبلغ دفاعهم حدا لا مزيد بعده .
 - ٦ - لم يستسلم الاهالى الا بعد ان أصبحت بولاق خرابا وبعد أن جرت الدماء أنهارا في الشوارع وأكلت النيران المدينة .
- بعد هذه النكبة التى حلت ببولاق تملك المصريين نوع من الفرع ، فانتهر كليبر الفرصة وأمر بشن هجوم عام على مدينة القاهرة وفي ١٨ من ابريل بدأ الهجوم من جهة الناصرية وباب اللوق والمدابغ والفجالة وكوم أبو الريش وباب الشعرية .
- ١ - هاجم الكولونيل سيلى حى الناصرية وفشل فى احتلاله .
 - ٢ - هاجم الجنرال دنزلو المدابغ وكان الاهالى قد حفرُوا خندقاً عميقاً وتحصنوا فى المنازل المحيطة به ، وأطلقوا منها نيران بنادقهم على الفرنسيين فانسحب وفشل فى احتلال المنطقة .
 - ٣ - هاجم الجنرال فريان والجنرال بليار من ميدان الازبكية وجنرال رينيه من الفجالة ، وكوم أبى الريش وباب الشعرية ودار قتال عنيف فى هذه المناطق وكثر القتلى والجرحى من الجانبين ، وأصيب الجنرال بليار ، واستمر القتال أياماً متتالية ، وكان الفرنسيون يوظفون مراكزهم ويضيقون على الثوار .

وبدا القتال يأخذ صورة جديدة فقد ضعفت شدته واضتناهم طول حالة الحرب ، وهدت من روحهم كثرة الفظائع والاهوال التي حاقت بهم ، وبدءوا يفكرون في الصلح .

اما الفرنسيون فقد اسرفوا في ارتكاب الفظائع ، وارتكبوا وسائل وحشية كاضرام النار في الاحياء الاهلة بالسكان وهدم البيوت المزدحمة بالعائلات ، حتى أصبحت المدينة على صورة تبعث الفزع وتشير الحزن والأسى ، واحترقت احياء كاملة في المدينة ، كحي الأزبكية والفوالة ، وبركة الرطل وباب البحر، وباب الشعرية، ويصف الجبرتي آثارالحريق في حي الأزبكية فيقول « انهدم جميع ما هناك من الدور والمباني العظيمة والقصور المطلة على البركة ، واحترقت جميع البيوت وكذلك خط الفوالة والرويعي ، وصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن مغنى صبايات ولا مواطن أنس ونزاهات» ، ويصف بركة الرطل وما حدث بها فيقول ... صارت كلها تلال وخرائب وكيما ن اتربة ... صارت كلها خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات » .

ويصف المسيو جالان المأساة فيقول « وقع الهجوم العام على القاهرة ، وكان هولا هائلا شاملا جميع الجهات ، فصبب المدافع قنابلها على المدينة السائرة ، وظل اطلاق القنابل والرصاص متواصلا طول الليل ، وشبت الحرائق في جهات متعددة وأخذت النيران في كل لحظة تلتهم المنازل بعضها . اثر بعض » ويقول في موضع آخر « .. لقد لاحظت ان الحصار اضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب احياء بأكملها ، وتمثل لنا شبحة المخيف في الأزبكية وأثرت في نفسى صورته المفزعة ، فليس في الامكان أن نخطو خطوة الا على كثران من الخرائب والاتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الهدم» .

عندما بلغت الحالة بالمدينة هذه الدرجة من الفظاعة والهول ، استأنف علماء القاهرة مسعاهم من أجل انهاء الوضع القائم وبعد مشاورات بينهم وبين زعماء المماليك ، ندب اثنان هما عثمان أفندي وكيل الصدر الاعظم ، وعثمان بك الاشقر ، لمفاوضة كليبر في وقف القتال ، وفي ٢١ من ابريل تم الاتفاق على أساس :

١ - جلاء جميع الجنود العثمانية والمماليك عن القاهرة على أن يتم الجلاء في مدة ثلاثة أيام ، وأن يأخذوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم ما عدا المدافع .

٢ - يواصل هؤلاء الانسحاب والجلاء حتى حدود سورية .

٣ - اعلان العفو العام عن جميع أهالى القاهرة الذين اشتركوا في الثورة .

٤ - لا يسمح لمصرى بالحقاق بالجيش العثمانى .

ولقد استمرت ثورة القاهرة ثلاثة وثلاثين يوما ، وبتوقيع هذا الاتفاق غادر الاتراك والمماليك البلاد ، وهاجر عدد كبير من السكان المدينة وتفرقوا في البلاد خوفا من انتقام كليبر ، وعادت السلطة الى

الفرنسيين واستتب الامر لكليبر ، وبدأ يفكر في ان يظل في مصر بصفة دائمة وان يحكمها كمستعمرة فرنسية ، واستبعد نهائيا فكرة الانسحاب من مصر ، وكان اول ما فعله بعد انتهاء الثورة ، ان اقام عرضا عسكريا في سهول القبة دعا اليه الاعيان ، ثم دخل الجيش الى المدينة واخترق شوارعها بين قصف مدافع القلاع ، ثم على حد قول الجبرتي « لما انقضى امر الموكب نادوا بالزينة فزينت البلاد ثلاثة ايام مع السهر ووقود القناديل ليلا » ...

الانتقام من الثوار ...

كان من ضمن الاسس التي تم الاتفاق عليها بين كليبر ومفاوضيه ان أعلن كليبر العفو العام عن جميع اهالي القاهرة الذين اشتركوا في الثورة ، الا أن كليبر بعد أن استتب الامر في البلاد نقض عهده ، وبدأ يكيل للشعب الطعنات والضربات ، ويسيء معاملته الاهالي بما لا يتفق أبدا مع وعد العسكريين ، الذين يتميزون عن غيرهم بالتمسك بالرأى والاعتزاز به ..

١ - فأول عمل قام به كليبر بعد دخوله القاهرة اصداره أمرا بالاقتصاص من سكان القاهرة جميعهم ، واتخذ الاقتصاص صورة فرض غرامة جسيمة قدرها ١٢ مليون فرنك يقدم نصفها نقدا ونصفها عروضاً ، كما فرض على سكان المدينة تقديم ٢٠ ألف بندقية ، ١٠ آلاف سيف ، ٢٠ ألف طبنجة ، فكان كليبر قاسيا غاية القسوة في هذه الغرامة التي فرضها على شعب حل به الخراب والدمار نتيجة لاعمال العنف والتخريب والحرق والتدمير التي تعرض لها وتعرضت لها مدينته .

واتجه كليبر الى كبار الاعيان والعلماء فأمر بأن يكون نصيبهم من هذه الغرامة كبيرا ، فصادر أملاك السيد المحروقي كبير التجار ، وفرض على الشيخ السادات ١٥٠ ألف ريال ، والشيخ الصاوي ٥٠ ألفا ، والشيخ الجوهري ٥٠ ألفا ، ولم يكتف بذلك بل أمر باعتقال خمسة عشر رجلا من كبار اهل القاهرة كرهينة حتى تنفذ أوامره ولا شك في ان هذه الغرامة تعتبر جسيمة فوق طاقة الشعب ، ولهذا فقد أنهكت مختلف الطبقات .

ومن عجب ان كليبر حين قابله اعيان المدينة اعتبر فرض الغرامة غير متعارض مع وعده لهم بالامان فقد قال لهم « حيث اننا أعطيناكم الامان فلا ننقض اماننا ولا نقتلكم وانما نأخذ منكم الاموال فالمطلوب منكم عشرة آلاف فرنك » .

وقد أسرف الفرنسيون في ارهاق الاهالي واذلالهم ، واعتقلوا منهم الكثيرين لاكرَاههم على دفع الغرامة ، وفتشوا البيوت بحثا عن السلاح ، وافتنوا في وسائل الارهاب وضروب القهر والنكال ، واشتد الضيق بالناس لكثرة ما لاقوه من الاهوال ، فاضطر كثيرون الى الهجرة .. باعوا متاعهم ، وتركوا ديارهم واموالهم فرارا من ظلم الظالمين واضطهاد الفرنسيين .

ومرت بالبلاد فترة أصيب اقتصادها بنكسة وكساد ، وظلت الأسواق مقفلة ، والحوادث مغلقة ، والوكالات مغلقة والارزاق عاطلة .

وكان السيد محمد السادات هدفا للانتقام، فقد عامله الفرنسيون بقسوة واعتقلوه وأهانوه ، وصادروا أمواله وباعوا أملاكه ، ليحصلوا من ثمنها على الفرامة التي فرضت عليه وكانت أكبر غرامة فرضت على فرد ما ، وأفرطوا عليه في القسوة ، ولم يعملوا حسابا لمكانته ومنزلته ، وذكر الجبرتي ما لاقاه الشيخ السادات فقال « نزل الشيخ السادات وركب الى داره ، فذهب معه عشرة من العسكر وجلسوا على باب داره، فلما مضت حصة من الليل حضر عشرة من العسكر أيضا فأركبوه ، وطلعوا به الى القلعة وحبسوه في مكان، فأرسل الى عثمان بك البرديسي وتدخل عليه فشفع فيه فقالوا له « أما القتل فلا نقتله لشفاعتك ، وأما المال فلا بد من دفعه ، ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه وقبضوا على قواصه ثم حبسوه ، في حاصل ينال على التراب ويتوسد بحجر وضربوه تلك الليلة » .

ولعل السبب الذي من أجله عومل السادات هذه المعاملة هو اتهامه بأنه يكره الفرنسيين وأنه يحرض الناس ضدهم حتى أن نابليون قال في مذكراته « ان السادات قد خص بغرامة فادحة ، وكان معروفا عنه كرهه للفرنسيين ، على أنهم أسرفوا في أهائه لدرجة أنهم نسوا مقامه المستمد من مولده فقد رفض أن يدفع الفرامة فاعتقل وسجن بالقلعة ، ولم يبال بالتهديد والوعيد ، فأمر كليبر بضربه بالعصى، وهكذا ضرب السادات وأهينت السلالة النبوية ، فعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب .

وكانت هذه المعاملة على النقيض من معاملة نابليون للسادات عقب ثورة ١٧٩٨ ، فقد قابله بالعفو والتسامح مع قيام البيئات عليه بأنه زعيم الثورة ، وقال المسيو جومار « ان الشيخ محمد السادات كانت له مكانة كبيرة في البلاد خلال الحملة الفرنسية ، وكان يعرف كيف يشير عواطف الشعب ، والمعروف عنه أنه هو الذي أهاج ثورة القاهرة الاولى وحرض على الثانية ، على أنه دفع ثمنا غاليا لمكانته بين الشعب ، فقد فرض عليه القائد العام الجنرال كليبر بعد واقعة عين شمس غرامة فادحة ، وأسرف في القسوة معه ، الى حد أن أمر بضربه بالعصى » .

٢ - رأى كليبر أنه بعد أن انتصر على العثمانيين قد أصبح شبه حاكم مستقل فأخذ يحكم البلاد ، وينظم شئونها ، وينظم قبل كل شيء قواته ، ويدعم موقفه الحربي ، فأمر بإنشاء قلاع جديدة ، تكون عدته وبسلاحه اذا نشبت ثورة أخرى ، ثم أمر باصلاح القلاع القديمة وترميمها .

٣ - بعد ان انهزمت تركيا في موقعة « ابو قير » البرية اتجهت الى مفاوضة كليبر لتنفيذ معاهدة العريش الا أن كليبر وقد أحس ان مصر أصبحت ملكا له ، رفض مجرد الحديث في الصلح ، وعند ما علم ان هناك عدة بوارج من الاسطول العثماني قد وصلت الى شواطئ

مصر بقيادة حسين قبطان باشا ، أصدر أوامره الى قومندانات نفور الاسكندرية ورشيد ودمياط بعدم السماح لهذه القوة بالنزول الى البر ، كما عين قوة متنقلة من الجنود تقوم بمراقبة السواحل لتستطلع تحركات العثمانيين كذلك رفض دعوة الصلح التي تقدمت بها إنجلترا ، فقد بعث اليه سفير إنجلترا في الاستانة يعلمه قبول الحكومة الانجليزية لنصوص معاهدة العريش ، وأن الحكومة مستعدة للسماح للسفن بنقل الجنود الفرنسية بحرا .

٤ - اراد كليبر ان يوهن العلاقة القائمة بين الباب العالي وانجلترا وان يفسخ التحالف بينهما ، فأخذ يتودد الى تركيا لاقتناعها بأن مساعي إنجلترا لاجراج الفرنسيين من مصر ، انما تهدف الى احتلال إنجلترا لمصر واحلال قواتها العسكرية مكان القوات العسكرية الفرنسية ، وبدا فعلا كليبر يفاوض الباب العالي مباشرة بعد ان عرض رايه هذا على قواده المقربين فاستجابوا له ووافقوا عليه ، الا انه قتل فحيل دون مراده ورغبته .

حوادث الاعتداء على المسيحيين ..

كانت القيادة الشعبية في ثورة القاهرة الاولى التي نشبت في عهد نابليون مقصورة على العنصر المصري وحده ، فتولت هذه القيادة ادارة الثورة وجمعت تحت لوائها جميع المصريين مسلمين واقباطا اما حين شبت الثورة المصرية في القاهرة في عهد كليبر ، فقد كانت قيادة الثورة تجمع عناصر أخرى غير العنصر القومي كعنصر الاتراك والمماليك ، الذين كانوا بعيدين عن مركز القيادة في الثورة الاولى .

ولقد ادى هذا الخلط في تنوع العناصر في القيادة الى حوادث مؤسفة ، فقد وقع اعتداء على المسيحيين الذين يسكنون القاهرة وشوهت هذه الاعتداءات الثورة ، وجعلتها هدفا للاستنكار والسخط ، ولا شك في ان هذه الاعتداءات تقع مسئوليتها على عنصري الاتراك والمماليك فهم بشهادة الفرنسيين كانوا الامرين بالاعتداء المحرضين عليه ، فالمسيو ميو وهو واحد من المعاصرين لهذه الثورة ، ذكر في مذكراته ان كتائب الجنود العثمانيين بقيادة ناصف باشا هي التي ارتكبت حوادث الاعتداء على المسيحيين ، وذكر الجبرتي ان نصوص باشا كان هو الامر بالاعتداء على المسيحيين ، وأن الذين ارتكبوا هذه المنكرات هم الحجازية والمفاربة .

مقتل كليبر

لقد ظن الجنرال كليبر وهو يفرض حاله الارهاب العنيف على مصر انه قد ملك البلاد ، وانها قد صارت في قبضته ، ولكن ظنه هذا كان يخالف الحقيقة والواقع ، لان المصريين عاشوا في عهده يتضرعون الى الله القوي القاهر ان يكون معهم وأن يقف بجانبهم وأن يؤيدهم بالقوة ، وأن يقضى على كليبر جزاء ما اقترفت يده من أعمال التخريب والتدمير والهدم والقتل والتعذيب والتشريد والسحل ومصنادرة

الاموال والاملاك ، وكانما كانت السماء على موعد من دعوات المصريين ، فقد فوجيء الناس في ١٤ من يونية ١٨٠٠ بخبر ينتشر بسرعة البرق ينبئهم بأن الحاكم الطاغية قد انتهى الى غير رجعة ، اذ لقي مصرعه على اثر طعنات اصابته في القلب ، وجهها اليها شاب عربى من حلب يدعى سليمان الحلبي .

وسليمان الحلبي هذا جاء الى مصر واختبأ في بيت كليبر وراء بئر عليها ساقية ، فلما اقترب كليبر من مكانه تقدم اليه متوسلا كأنما يطلب منه شيئا ، وفي لحظات خاطفة أخرج خنجرا وطعنه به فسقط مضرجا في دمه ، وفر سليمان الا ان المسيو بروتان - وهو احد مهندسي الحملة وكان مرافقا لكليبر - اسرع وراءه وتماسك الاثنان فطعنه القاتل ست طعنات ، فسقط على الارض وهو يصيح على الحراس في حين عاد القاتل الى كليبر ليجهز عليه ، فطعنه ثلاث طعنات نفذت احداها الى القلب ، واختفى القاتل بعد ذلك في حديقة السراي ، وألقي القبض عليه ، وشكلت محكمة عسكرية لمحاكمته برئاسة الجنرال رينييه ، وحكمت عليه باحراق يده اليمنى ، ثم اعدامه على خازوق ، وترك جثته تأكلها الطير ، ونفذ فيه حكم الاعدام بعد ان دفنت جثة كليبر .

وبموت كليبر عاش الناس في خوف وجزع ، فقد كانوا يخشون الانتقام الرهيب والتنكيل والتعذيب ، وخاصة ان الوطنيين لمحو علامات الغضب والسخط والتحفز على وجوه الفرنسيين ، الذين تجمعوا في ميدان الازبكية ، ينادون بالانتقام والاخذ بالثأر ، ويهددون باحراق المدينة ، واستولى الفرع على الناس ، فأقفلوا دكاكينهم وخلت الطرق من المرور ، وحبس كل نفسه في بيته طلبا للنجاة ، وهاجر كثير من العلماء والاعيان الى الاقاليم ، وتبعتهم الجماهير ، حتى ان السلطات الفرنسية تدخلت ، وقد هالتها كثرة الجموع المهاجرة ، فأمرت بمنع انتقال الناس ، وأنذرت المهاجرين بنهب دورهم ومصادرة أموالهم اذا لم يعودوا الى القاهرة خلال خمسة عشر يوما .

وقد كان الازهر المكان الذي اتجهت اليه انظار الفرنسيين على اثر مقتل كليبر ، فان القاتل خلال محاكمته اعترف بأنه كان يدرس في الازهر ، ولهذا لم يقتنع الفرنسيون بأن علماء الازهر كانوا يجهلون نية القاتل قبل ارتكابه جريمته ، فلما انتقضت محاكمة القاتل ، وتولى الجنرال مينو قيادة الفرنسيين ، اتجه الى الازهر ، وأخذ يخرب نواحيه بحجة التفتيش عن السلاح ، وكانت هذه الخطوة كافية لان يهجر طلبة العلم الازهر ، فنقلوا امتعتهم ونقلوا كتبهم وأخلوا أروقه ، وعندما رأى العلماء ان الازهر أصبح مكانا لتدخل الفرنسيين طلب أكثرهم اغلاقه وتوجه الشيخ الشرقاوى والمهدى والصاوى الى مينو وطلبوا منه اغلاق الجامع الازهر ، فوافق . وفي ٢١ من يونية ١٨٠٠ اتجه هؤلاء المشايخ الى الازهر فقفلوا ابوابه ، وهؤلاء كانوا بعيدى النظر ، فانهم خافوا ان يدس الفرنسيون من طلبة الازهر من يكون عميلا لهم ، ثم يحتجون بذلك ، وينجزون ما يريدونه من العلماء والفقهاء ، وينالون منهم ، وهم بذلك يكونون قد اغلقوا باب الانتقام امام الفرنسيين .

في عهد مينو

بعد مقتل كليبر عين مينو قائدا للحملة الفرنسية ، ومينو هذا هو أحد الجنرالات في الحملة الفرنسية ، كان ضعيف الشخصية يميل الى التملق والرياء والتظاهر بالاخلاص ، وكانت هذه هي وسيالته في التقرب الى نابليون حين تألق نجمه في سماء العبقريّة والعظمة وأحس قادة الحملة الفرنسية بضعف شخصيته ، فلم ينل منهم الاحترام والتقدير ، وأدركوا جميعا أن نهاية الحملة ستكون على يديه حتى انه أثر عن الجنرال داماس قوله « ان قائدا مثل الجنرال مينو سيكون سببا في ضياع الجيش الفرنسي »

ومن مظاهر ضعف شخصيته أنه أراد من مرعوسيه أن يعاملوه بذات الطريقة التي كان يتعامل هو بها مع رؤسائه ، ولهذا أحاط نفسه ببطانة من الاصدقاء والمحاسيب وأنعم عليهم بالرتب العالية ليكونوا تبعاً له يتملقونه ويعظمونه .

وعرف عن مينو كرهه الشديد لكليبر ، وحقدّه عليه ويبدو أن كليبر كان يشك في اخلاصه ، ولهذا استدعاه من الاسكندرية وعينه قومنندانا للقاهرة ليكون تحت نظره ، فلا يخاطب نابليون في فرنسا كما كان يفعل وهو في الاسكندرية ، ويقال ان كليبر لو استشير فيمن يخلفه في قيادة الحملة ، لما اختار مينو أبدا ، لأنه كان يحس بعجزه عن الاضطلاع بهذا المركز الخطير ، ومما يؤكد كراهية مينو لكليبر أنه لم يكن يحترم ذكره ، وانه حين رزق من زوجته المصرية بذكر أسماه سليمان وكان هذا الاسم يثير في نفوس الفرنسيين الالم والحزن لانه يذكرهم بقاتل كليبر ، وأدت كراهيته لكليبر الى تخبطه في معاملة الضباط والجنود الذين كانوا يميلون الى كليبر ويعتزون به ، مما أثار السخط والغضب عليه ، وبلغ النفور بينه وبين قادة الحملة حدا بعيدا ، حتى انه فكر في ترحيلهم الى فرنسا ، ولكنهم رفضوا وبقوا في مصر برغم ارادته .

محاولات التقرب الى المصريين . . .

كانت سياسة مينو منذ قدم مع الحملة الفرنسية مهادنة المصريين والتقرب اليهم ، ومما يؤكد ذلك أنه فكر في التقرب الى الشعب لدرجة الاندماج فيه حينما كان يتولى منصب حاكم رشيد ، فأعلن اسلامه وسمى نفسه عبد الله باشا مينو . وقرر أن يتزوج من مصرية مسلمة من

رشيد ، وفي ٢ من مارس سنة ١٧٩٩ عقد زواجه على السيدة زبيدة كريمة السيد محمد البواب أحد الاعيان .

وعندما تولى مينو الامر في مصر حاول ان يزيد التقرب بينه وبين المصريين ، فأمر في أكتوبر ١٨٠٠ بإعادة الديوان الذي كان قد أبطل بعد توقيع معاهدة العريش ، وحدث تعديلا في نظامه فجعله مكونا من تسعة أعضاء كلهم من المسلمين ، بقصد كسب رضا غالبية الشعب واستمالتهم اليه ، ومنح الديوان اختصاصات أكبر من اختصاصاته الاولى فجعله بمثابة محكمة استئناف لها حق نقض الاحكام التي يتبين خطأها وجعله مجلسا استشاريا للحكومة يسهر على تقرير العدالة ، وإدارة المساجد والتكايا ، ومعاهد التعليم ، وينفق على الحج ؛ ويتصل بالقائد العام ليعرض مطالب الاهالى ، كما جعل من اختصاصه انتخاب القضاة وترشيحهم لمناصبهم وعزلهم .

وقام مينو من أجل اجتذاب قلوب المصريين اليه بعهد كبير من المشروعات الإصلاحية ، فهو مثلا نفذ مشروع احصاء المواليد والوفيات وتحرير دفاتر الزواج ، ومسح الاطيان الزراعية ؛ وانشاء مصنع للجبوج وانشاء حديقة للنبات ، وغير ذلك من المشروعات التي كان يرى فيها ارضا للمصريين .

ولكن مينو أخطأ الطريق الى قلوب المصريين ، فان مصريا واحدا لم ينس أن مينو كان من أشد الداعين الى اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية ومن أجل هذا ناصبه المصريون العدا ، وكان كلما تقرب اليهم نفروا منه .

نفور المصريين من مينو . . .

وابتدا مينو عهده بفرض ضرائب واثاث فادحة مما أغضب القلوب عليه ، فهو مثلا قد فرض ضريبة قدرها ٤ مليون فرنك على ملاك الدور ومستأجريها ، كما فرض مليون فرنك على التجار وأرباب الصناعات والحرف ، ولقد صور الجنرال رينييه أثر هذه الضرائب الجديدة في الشعب فقال « لم يكادوا (يقصد المصريين) يعودون الى العمل حتى باغتتهم الاثاث الجديدة ، وفرضت عليهم ضرائب أوقعتهم في الضيق ، فاضطر معظمهم الى اقفال دكاكينهم ، وترك الاشتغال بالتجارة » .

ضج سكان العاصمة وضائق بهم المسالك ، فبدءوا يفرون من وجه الظلم والظالمين وهنا أعلن مينو أن من لا يعود الى داره بعد اثنين وثلاثين يوما تنهب داره وتصادر أملاكه ، ويعتبر من المذنبين ، وقال الجبرتي « وتابعوا نهب الدور بأدنى شبه ، ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته ، واحتجب سارى عسكر عن الناس ، وامتنع عن مقابلة المسلمين » .

وصودرت أموال الناس وبضائعهم ، ونهبت دورهم ، كما أن المهندسين الفرنسيين أكثروا من الهدم والتخريب لأغراض حربية ، فهم أخذوا في ترميم واستكمال بناء القلاع التي كانوا قد بدءوها في أيام كليبر كما انهم أرادوا بناء سور حول المدينة لمنع قيام ثورة فيها ومن أجل هذا هدموا البيوت والعمارات وأخذوا أخشابها ، وأدوات البناء منها ،

كما هدموا بيوتنا وأخذوا أخشابها لاستخدامها كوقود ، وهكذا عم الهدم والتدمير أحياء بأكملها كما حدث مثلاً في الحسينية والخروبي وبركة الفيل ، وامتد هدمهم الى الجوامع ، فهدموا مثلاً جامع الجنبلاطية وجامع السبع سلاطين ، وجامع الشركسى ، والرويعى ، والبنهاوى وغيرها من الجوامع .

ثم أمعنوا فى الهدم والتخريب فهدموا مصاطب الحوانيت واقتلعوا أحجارها ، وعللوا ذلك بالرغبة فى توسيع الشوارع والأزقة ، فى حين كان غرضهم أصلاً منع الناس من استغلالها كمباريس فى حالة قيام ثورة ، ومن المصاطب التى هدموها مصاطب درب الجماميز ودرب سعادة وباب الخلق حتى باب الشعرية .

وأمعنوا فى مصادرة الأخشاب فقطعوا الأشجار والنخيل من الحدائق ، واستولوا على أخشاب المراكب والسفن ، مما أدى الى صعوبة النقل بالنيل ، وارتفاع أجور الشحن ، وارتفاع الاسعار ، واشتداد الضيق بالناس .

يتضح اذن أن مينو لم يفكر فى التقرب الى الشعب ، وإنما كان يعمل على توسيع الهوة بين الطرفين ، فقد قامت سياسته منذ اللحظة الأولى على ارهاق الاهالى وظلمهم ونهبهم ومصادرة أرزاقهم وهدم بيوتهم وتخريب ديارهم وممتلكاتهم . .

وأحس المصريون أن سيل المظالم فى عهد مينوفى ازدياد وطغيان .

نهاية الحملة ...

ولعل سياسة مينو -- عندما نزلت القوات الانجليزية فى رشيد « وأبو قير » والاسكندرية والقوات التركية فى الصالحية وبلبيس - كانت من أهم العوامل التى أبعدت ما بين المصريين والفرنسيين فعندما علم مينو بأمر الحملتين تولاه الفزع ، وسناد صفوف جنده الاضطراب ، وخشى قيام ثورة مصرية ضده ، مما يزعزع كيانه ويحطم جبهته الداخلية ، ولم يحاول فى هذه الآونة أن يتقرب الى المصريين وإنما أتى بأعمال أثارتهم عليه ، وجعلتهم يترقبون فرصة الخلاص ، فهو مثلاً يستدعى أعضاء الديوان ويطلب منهم أن يقوموا بتوجيه البلاد الى الهدوء والسكينة ، واستبعد فكرة الثورة ، وحملهم مسئولية وقوع أية حركة فى العاصمة وفى غيرها .

ثم يشتد انزعاج الفرنسيين ، فيعتقلون السيد محمد السادات خوفاً من اثارته الفتن فى البلاد ، واهاجة العامة ضدهم ، كما اعتقلوا حسن أغا ، وفى ١٢ من مارس سنة ١٨٠١ استدعى مينو أعضاء الديوان ورؤساء التجار ، وأعلنهم أنه كان ينوى اعتقالهم كرهائن لمنع وقوع الفتن فى البلاد ، وبعد فترة قصيرة القي الفرنسيون القبض على أربعة من أعضاء الديوان هم الشيخ الشرقاوى ، والشيخ المهدي ، والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى ، وقبضوا أيضاً على خمسة عشر من أعيان القاهرة ، ثم اعتقلوا

الشيخ محمد الامير بحجة أن ابنه يثير المصريين فى الوجه البحرى ضد
الفرنسيين .

بدأ الاشتباك المسلح بين الانجليز والفرنسيين وخسر هؤلاء أول
معركة لهم فى كانوب ، وانفتح الطريق أمام الجيش الانجليزى للتوغل
فى البلاد ، فتقدموا واحتلوا الرحمانية بعد معركة انتصروا فيها فى ٩ من
مايو سنة ١٨٠١ .

وفى الوقت نفسه كان الجيش التركى بقيادة الصدر الاعظم يوسف
باشا ضيا قد وصل الى بلبيس ، ثم تقدم الى القاهرة فى الوقت الذى
تقدمت فيه القوات البريطانية اليها وأصبحت القاهرة محاصرة من قوات
الانجليز على الشاطئ الأيسر من النيل وقوات العثمانيين على الشاطئ
الأيمن ، وأحس مينو بضعف مركزه وبقرب نهايته ، فبعث يطلب وقف
القتال وفتح باب المفاوضات ، وقبلت القيادة الانجليزية العثمانية طلبه
ووقعت اتفاقية الجلاء .

وبدأ الفرنسيون يستعدون لمغادرة البلاد ، وسعد المصريون بهذه
الاخبار سعادة لا حد لها ، فهم بعد سنوات ثلاث يتخلصون من عهد
الارهاب العنيف الذى عاشوا فيه منذ وطئت الحملة الفرنسية بأقدامها
الدنسة أرض البلاد ، وخرج الناس من بيوتهم فرحين مستبشرين وأطلق
سراح المشايخ والأعيان وباقى المعتقلين ، وعمت البلاد موجة من الفرح
والابتهاج .

وأخذت السفن الفرنسية تقلع من الاسكندرية خلال شهر سبتمبر
سنة ١٨٠١ ، وفى ١٨ من أكتوبر تم جلاء الفرنسيين جميعا عن البلاد
المصرية وطويت صحيفة الاحتلال الفرنسى فى مصر .

وانتهت بذلك مرحلة من مراحل الكفاح الشعبى فى مصر ضد
المستعمرين الذين أرادوا أن يعثوا بحريته ، وأن يستهينوا بأبطاله وأن
يستذلوا رجاله ، وأن يمتهنوا كرامته ، ونسوا أن للشعب فى التاريخ
حظا موفورا من الجهاد المجيد والبطولة الحادة .

(انتهى)

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٥	مقدمة المؤلف
	الباب الاول :
٩	مصر والحملة الفرنسية
١٠	مصر قبل الحملة الفرنسية
١٢	الاتجاه الى احتلال مصر
١٥	الحملة الفرنسية واحتلال مصر
	الباب الثانى :
١٩	الحالة النفسية للمصريين وقت الحملة
٢٠	محاولة التقرب الى المصريين
٢٩	مشاعر المصريين تجاه الحملة
٣٣	عوامل الكراهية للفرنسيين
	الباب الثالث :
٣٧	الكفاح الشعبى فى الوجه البحرى
	الباب الرابع :
٤٧	الكفاح الشعبى فى الوجه القبلى
	الباب الخامس :
٦١	ثورة القاهرة الاولى
	الباب السادس :
٨١	تجدد النضال الشعبى فى الوجه البحرى
	الباب السابع :
٨٧	النضال الشعبى فى عهد كليبر ومينو
٨٨	(١) فى عهد كليبر
١٠٦	(٢) فى عهد مينو

هيئة قناة السويس

الحمولة الصافية

زادت الحمولة الصافية للسفن التي عبرت القناة خلال الشهر الحالي عن مثيلاتها في سبتمبر ١٩٦١ بمقدار ٢٤٠٤٠٠٠ طن أى بنسبة ١٥,٩٪ (١٧٤٨٦٠٠٠ طن خلال شهر سبتمبر ١٩٦٢ مقابل ١٥٠٨٢٠٠٠ طن فى سبتمبر من العام الماضى) .

وقد تطور المتوسط اليومي للحمولة الصافية خلال ثلاثة الأشهر الأخيرة من ٥٢٩٠٠٠ طن فى يولية ١٩٦٢ الى ٥٥٣٠٠٠ طن فى أغسطس حتى وصل الى ٥٨٣٠٠٠ طن فى سبتمبر من العام الحالى ، بينما كان هذا المتوسط ٥٠٣٠٠٠ طن فى سبتمبر ١٩٦١ . وبلغ متوسط الحمولة الصافية للسفينة خلال الشهر الحالى ١١٠٨١ طنا مقابل ١٠٧١٢ طنا فى سبتمبر سنة ١٩٦١ .

وترجع الزيادة فى الحمولة الصافية الى السفن العابرة فى كلا الاتجاهين . فقد زادت الحمولة الصافية للسفن المتجهة جنوبا بمقدار ١٢٠٧٠٠٠ طن أى بنسبة ١٥,٨٪ (٨٨٥٨٠٠٠ طن مقابل ٧٦٥١٠٠٠ طن) بينما زادت الحمولة الصافية للسفن المتجهة شمالا بمقدار ١١٩٧٠٠٠ طن أى بنسبة ١٦٪ (٨٦٢٨٠٠٠ طن مقابل ٧٤٣١٠٠٠ طن) .

ويمكن تقسيم الزيادة المسجلة فى الحمولة الصافية بين السفن المحملة والفارغة والحربية كالآتى :

السفن المحملة	+ ٤٨٨ ٠٠٠ ١ طن
السفن الفارغة	+ ٨٩٦ ٠٠٠ طن
السفن الحربية	+ ٢٠ ٠٠٠ طن
المجموع	+ ٢ ٤٠٤ ٠٠٠ طن

تحليل حركة الملاحة فى القناة

خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٦٢

الحركة الملاحية :

سجلت الحركة الملاحية خلال شهر سبتمبر ١٩٦٢ أرقاماً قياسية جديدة ، اذ عبرت القناة خلال هذا الشهر ١٥٧٨ سفينة مجموع حمولتها الصافية ١٧٤٨٥٧٥٢ طناً متوسط يومى قدره ٥٢,٦ مقابل ١٤٠٨ سفينة حمولتها الصافية ١٥٠٨٢١٩٧ طناً بمتوسط يومى قدره ٤٦٩ من السفينة فى سبتمبر ١٩٦١ .

وبمقارنة أرقام الشهر الحالى بمثيلتها فى سبتمبر ١٩٦١ يلاحظ أن عدد السفن قد زاد بنسبة ١٢,١٪ . وزادت الحمولة الصافية بنسبة ١٥,٩٪ والايرادات بنسبة ١٦,١٪ وبالمقارنة بأرقام أغسطس ١٩٦٢ يتضح أن المتوسط اليومى للسفن قد زاد من ٥٠,٦ من السفينة الى ٥٢,٦ من السفينة . وأصبح المتوسط اليومى للحمولة الصافية ٥٨٣٠٠٠ مقاس ٥٥٣٠٠٠ طن .

وقد عبرت القناة من الشمال الى الجنوب ٧٩٤ سفينة خلال الشهر الحالى مقابل ٧١٠ سفينة فى سبتمبر سنة ١٩٦١ بزيادة قدرها ٨٤ سفينة منها ٤٥ سفينة فارغة (٤١٢ مقابل ٣٦٧) و ٣٩ سفينة محملة (٣٨٢ مقابل ٣٤٣) .

أما السفن العابرة من الجنوب فقد زادت بمقدار ٨٦ سفينة (٧٨٤ مقابل ٦٩٨) منها ٨٢ سفينة محملة (٧٣٦ مقابل ٦٥٤) و ٤ سفن فارغة (٤٨ مقابل ٤٤) .



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عيسى - روض الفرج

٤١٠١٢ / ٤٠٧٥٣ } لمفون
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }